وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى– جيجل
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي القديم

عنوان المذكرة:

البيان عند الجاحظ

– أصوله وامتداداته–

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة الأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:
رزاي جميلة
بوالطين سماح

إشراف الأستاذ:
د/ جحيش عبد الفتاح

لجنة المناقشة

د/ زغيلط عبد العالي.....رئيسا
د/ جحيش عبد الفتاح.....عضوا ومقررا
د/ بوزكور مراد.....مناقشا

السنة الجامعية: 2020/2019

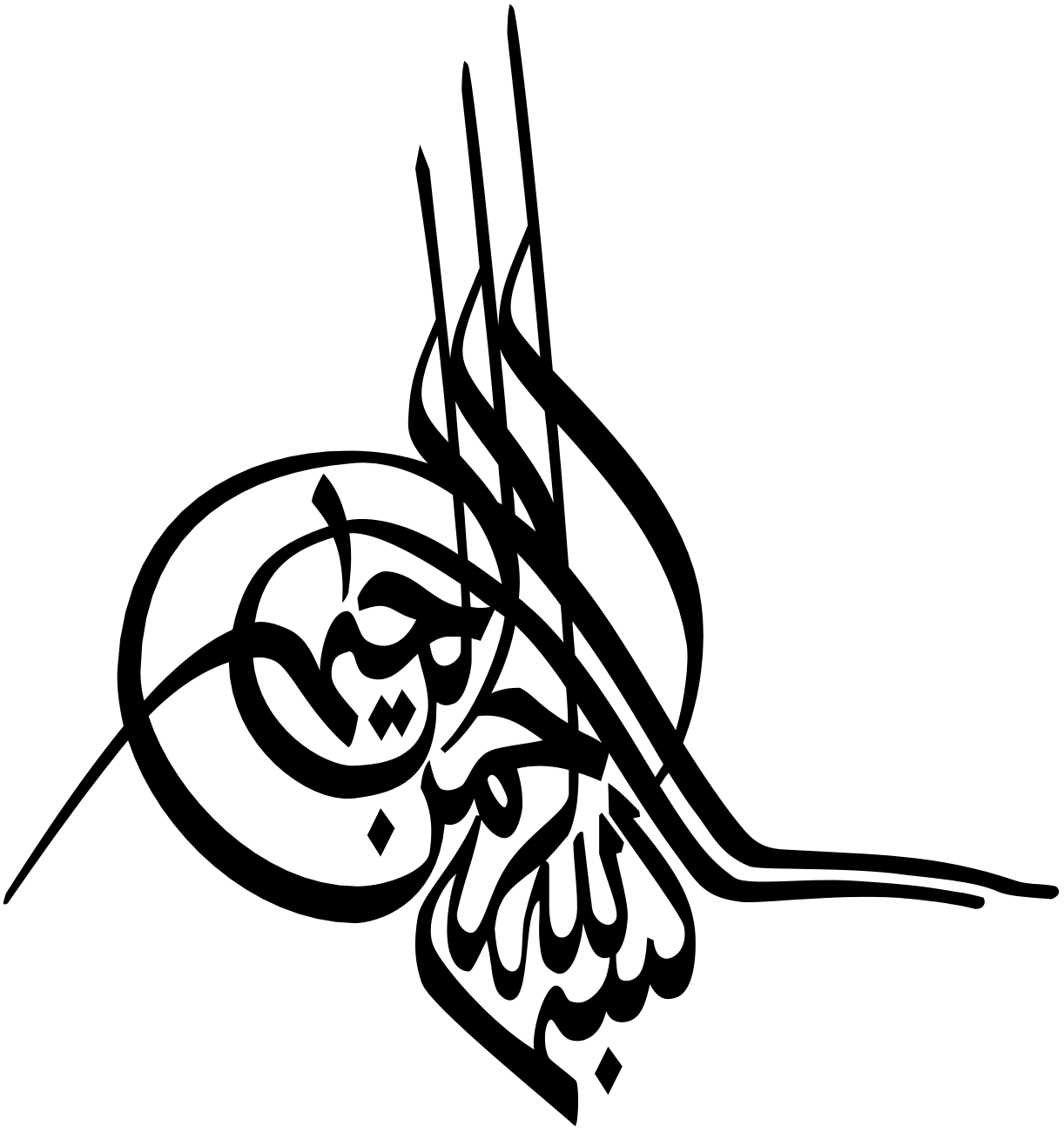
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

في البداية ينبغي قبل شكر العباد أن استهل شكري بشكر رب العباد الذي ادا شكرته زادني، و الذي سبق إحسانه وعمت أنعامه، وبارك ما صلح من أعمالي وبلغني أمالي، وتكرم علي بعطائه وكان عطاؤه قبل سؤالي

الحمد لله الذي رزقني هذا من غير حول مني ولا قوة حمدا طيبا مباركا فيه وله الشكر على نعمة العلم وتوفيقي في انجاز هده الأطروحة ، وصلي اللهم على نبيك وحبيبك المصطفى الذي أخرجنا برحمتك من الظلمات إلى النور بأفضل الصلوات وأزكى التسليم.

"ربي أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي و على والذي وأن اعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين".

ويتوجب علينا أيضا أن نتوجه بأسمى عبارات الشكر والإمتنان والتقدير إلى اساتدتي الأفاضل الذين جزاهم الله عنا كل خير.

الأستاذ "د. جحيش عبد الفتاح" لقبوله الإشراف على هذا البحث ومرافقته لنا طيلة إعدادها بكل تواضع وحسن الخلق وبنصائحه القيمة وتوجيهاته الصائبة، ودعمه المتواصل، فلك كل الشكر والتقدير استاذنا القدير نسأل الله تعالى أن يوفقك دوما لصالح الأعمال ويسعدك بالخلق الحسن ويجعلك من أهل الحكمة والجنة والكمال.

كل الشكر والعرفان للسادة الأعضاء لجنة المناقشة على تشريفهم لنا بقبول مناقشة عملنا المتواضع بالرغم من انشغالاتهم والتزاماتهم، ومنحي جزاء من وقتهم الثمين لتصويب أخطائنا وإفادتنا بخبراتهم فدمتم قدوة لنا ومنارة للعلم ووفقكم الله لما يحب ويرضى.

ولا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى كل من دعمني و ساعدني في إتمام هذا العمل .

مقدمة

لعلماء البلاغة واللّسان العربي الفضل الكبير في فهم التواصل قبل أن يصبح علما قائما بذاته، ونظرتهم لا تقل في أصالتها وعمقها عن الدراسة الحديثة، ولعل الجاحظ أكثرهم اهتماما وغاية في مؤلفاته الشهيرة فكان يقظا ونابها جدا فقد عالج قضايا عصره، ورأى أن الاتصال أو ما سماه بالبيان هو الوسيلة المثلى، ويرجع ذلك إلى القرن الثالث هجري، فأدرك أن اللغة هي وسيلة التواصل بشكليه المنطوق والمكتوب.

وكان الجاحظ موفقا في تحديد مفهوم البيان العربي كما يرى معظم الباحثين في إطار استقرائه لآراء الأمم الأخرى التي عرضها في كتابه للبيان والتبيين، وكان دقيقا في فهم ذلك البيان، وبيان مواطن جماله ومكامن روعته وطرائق التعبير فيه وحسبه أن كتابه هذا أصبح مصدرا مهما من مصادر بلاغة الدارسين العرب منذ القديم، ولا يمكن لباحث محدث يود الكتابة عن البيان أن يغفل جانبه أبدا، وهذا هو السبب الذي دفعنا لاختيار هذا الموضوع والذي له قيمة وأهمية كبيرة عند الجاحظ خاصة وعند البلاغيين عامة، غير أن الهدف المسطر من وراء هذه المذكرة المتواضعة هو قراءة تاريخية طبقا لقواعد المنهج التاريخي المتبع، ولأجل هذا يعد الجاحظ بالنسبة لمن جاء بعده مؤسسا من مؤسسي النظرية البيانية في الأدب العربي.

لذلك اكتست كتبه أهمية كبيرة عند المتخصصين في دراسة علوم البلاغة وفروعها، وقد اعتبرت كتبه موسوعات مصغرة في شتى الموضوعات، فالجاحظ احد أهم النقاذ الذين تأثرنا لمؤلفاته الغزيرة التي لفتت النظر إلى هذا الموضوع محاولتين الاستفسار حول المزيد من دراسته السابقة، إلا أننا سلطنا الضوء على هذا الموضوع الذي يهمنا هو "البيان عند الجاحظ أصوله وامتداداته " محاولتين الإجابة عن التساؤلات التالية:

ما هو البيان ؟ وكيف نشأ؟ وماهي تطوراته؟ ومن أين استمد الجاحظ مصادره المعرفية لبناء نظرية البيان؟ وماهي امتدادات نظرية البيان عند الجاحظ وأثرها فيما جاء بعده؟

ولقد اقتضى موضوع بحثنا الإجابة عن هذه التساؤلات معتمدتين في ذلك الخطة والتي توزعت إلى مقدمة، ومدخل، فصلين، خاتمة.

تناولنا في المدخل معالم عصر الجاحظ، الفصل الأول جاء بعنوان أصول البيان قبل وعند الجاحظ، وأما في الفصل الثاني فقد خصصناه للحديث عن امتدادات البيان بعد الجاحظ.

وفي الأخير خاتمة استخلصنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها معتمدتين في ذلك المنهج التاريخي، وقد اعتمدنا العديد من المصادر والمراجع أهمها:

البيان والتبيين الجاحظ، المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن أحمد أبو زيد، التفكير البلاغي عند العرب لحمادي صمود أسسه وتطوره إلى القرن السادس، بدوي طبانة دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، شوقي ضيف بلاغة تطور وتاريخ، وغيرها من المراجع التي تناولت القضايا الأدبية للجاحظ وقد واجهتنا عدة عقبات خلال انجاز هذا البحث ومنها:

- نزول وباء كورونا فجأة الذي منعنا من الاندماج الاجتماعي وكذا التواصل، وهذا نطلب من الله عز وجل رفعه عن جميع المرضى بالشفاء العاجل.
- وأيضا ظروف خاصة جعلتنا نتأخر عن انجاز هذا العمل .

ولا ننسى في ختام هذه الكلمة أن نتوجه بعظيم الشكر والامتنان إلى الأستاذ: "**د.جحيش عبدالفتاح**" الذي تحمل مسؤولية الإشراف على هذا البحث وأفاض علينا بنصائحه وتوجيهاته الجديرة بالثقة والتي سهلت السير إلى إنهاء هذا العمل ولهذا نرجو له الثواب من عند الله سبحانه وتعالى وكما نشكر كل من ساندنا ولو بالقليل ومد لنا يد المساعدة والإرشاد والله ولي التوفيق.

كتبته الطالبتان:

جميلة رزاي

سماح بوالطين

بتاريخ: 2020/10/19

مدخل:

معالم عصر الجاحظ

1- معالم عصر الجاحظ:

لقد بلغت دولة الإسلام قمة مجدها في عصر الإسلام الذهبي، حيث فيها نشأت أكثر العلوم الإسلامية ونقلت أهم العلوم الدخيلة إلى العربية، وكان الشرق يومئذ في نهضة فكرية، وازدهرت مدن العراق، البصرة وبغداد ومن مميزات العصر العباسي الأول، إطلاق الفكر من قيود التقليد، ولهذا تعددت البدع الدينية في أيامهم، وتكاثر الجواري أيضا في ذلك الوقت، واستخدموا الانقلاب السياسي والاجتماعي الذي أحدث انقلابا في الأفكار والعقول وذلك واضحا في آداب اللغة العربية وفنونها، وفي هذا الخضم الهائل من النسيج الفسيفسائي المركب، ظهر الجاحظ واسمه عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وعاش في هذا العصر وعاصر خلفاء عدة، وتطلع لبيئة العصر وإنتاجاته، والعصر الذي عاش فيه الجاحظ، عصر استقرار وازدهار في جميع المرافق والأصعدة وهذا ما سنلاحظه من خلال عرض معا لم عصره.

وهي ثلاث جوانب تعد الأهم وهي الحياة السياسية، الحياة الثقافية والحياة الاجتماعية.

أ– الحياة السياسية:

كان هذا العصر الذي اصطلح على تسميته بالعصر العباسي الأول، يتميز فيه الخلفاء بالقوة والسيطرة والدولة قوية من سعة الجوانب، مما وفر بيئة خصبة نما فيها الجاحظ وترعرع في ظلها،" كان ميلاد الجاحظ في خلافة المهدي، وكانت وفاته في خلافة المعتز، وهذا يعني أنه عاصر الهادي والرشيد والمأمون والمعتصم والواثق والموكل، ومن وزر لهم، وقام بأعمالهم من حكام وولاة ووزراء[1]"، أما في خلافة هارون الرشيد نضجت الخلافة وانتشرت الثقافة وازداد الرخاء، وعم الثراء والذبح وانتشرت النوادي الأدبية وشجع الوزراء من آل برمك على الأدب والأدباء، وأخذوا يعدون عليهم الأموال، واشتهر في هذا العصر أطباء، وشعراء، وكتاب كان لهم الدور في الدور في صقل موهبة الجاحظ، وتنمية مواهبه الأدبية والثقافية، مما كان يدور في هذه النوادي من حوارات

[1] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، ج 2، 1999م، ص63.

ومساحات علمية، مناظرات دينية، ثقافية أحيانا كان يشرف عليها الخلفاء والوزراء، وفي هذا الدور برز ابن المقفع والبرد، الفراهيدي وشعراء كثيرون، " أما هارون الرشيد (170- 194هـ) فقد نضجت في عهده الثقافات، واختلفت المعارف، وتعددت الموارد، ونما الاطمئنان الاجتماعي، وزاد الاستقرار النفسي، وكثر العطاء المادي الذي كان يشيع في تلك الفترة[1]"، وعندما نتكلم عن السياسة يجب أن نذكر الحياة الاجتماعية وما طرأ عليها من أمور اجتماعية كثيرة، وهي كثيرة لا تعد، فالحياة السياسية يجب أن تجتمع معها حياة مثقفة، وحياة فنية، وتتأثر فيها الجوانب جميعها من حياة البشر،" لقد مر المجتمع في المرحلة التي نتحدث عليها بتغيرات عاصفة في مختلف مجالات الحياة وأوجه النشاط فيها ولذلك كان لا بد أن تطرأ على الحياة السياسية جملة من التغيرات التي لا نعدها نتيجة فقط، ولكنها بمنزلة المقدمة والنتيجة في آن معا، ومن الأحداث السياسية التي حفل بها عصر الجاحظ وما تلاه من الحقبة ذاتها:سيطرة الترك على مقاليد السلطة وتخاصم النزاعات الشعوبية[2]"، وقد كان الاستقرار السياسي والسيطرة على الأوضاع الداخلية والخارجية، والحكم بدولة مترامية الأطراف تمتد من المغرب الأقصى غربا إلى أطراف الصين شرقا، لذا متمثلة الدولة العباسية في هذا العصر يعكس هذا الاستقرار السياسي، بدوره ويلقي بظلاله إنتاجها ثقافيا خصبا، وتطورات بالعلم والثقافة، وتنوعت ثقافيا كل هذه الأجواء الثقافية والمناخ الأدبي مما يقلل فيه الأدباء موهبته والشعراء في إنتاجها،" تلك الملحمة السياسية تعطينا مفهوما واضحا، منه أن الدولة كانت قوية مدافعة مهاجمة ومحافظة على حدودها، ومستزيدة من الفتوح، والقضاء على الثورات الداخلية والخارجية، ودولة هذه ملامحها لابد أن تكون قوية غنية، فإن استقرار الدولة سياسيا ينعكس على جانبيها الثقافي والاجتماعي[3]"، كما أن الحياة السياسية تتطلب العادات والسلوكات،" السياسة والآداب والفنون والعلوم والعادات والسلوكات الاجتماعية، كلها أوجه موشور واحد هو المجتمع، كل وجه يريك جانبا منه، وبدهي لذلك أن كل تغير أو تطور

[1] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص64.

[2] عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب المكتبة الإلكترونية، دمشق، دط، 2005م، ص45.

[3] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص65.

في أي واحد من هذه الأوجه يقود إلى تغير في الأوجه الأخرى[1]"، ومعنى هذا كما قلنا سابقا أن الحياة تتطلب كل شخص وكل فرد بها أن يتعلم الحياة بها كاملة، من سياسة وفن وعلم وأدب.... إلخ، فإذا كنت سياسيا يجب أن تقرأ على الأدب والفن والعلم وتطوره لتصبح سياسيا وقائدا مثقفا في المجتمع، أما إذا كنت صاحب علم وعالم يجب عليك أن تتطلع وتقرأ عن السياسة والفنون لتصبح عالما مثقفا بعلمك الذي تنشره للمجتمع، أما إذا كنت أديبا عليك الاطلاع في السياسة وتطور العلم وفنون العلم لتكون شاعرا أو أديبا معروفا لكل متطلبات الحياة ومهماتها.

ويعتبر عصر المأمون الخليفة السابع من خلفاء العباسيون في العصر الأول من الدولة العباسية، من أزهى العصور وأكملها، لما تمتعت به الفترة التي حكم فيها المأمون من تقدم ورقي، فما إن انتهت الحرب بين المأمون وأخيه الأمين، وأدت إلى مصرع الأمين، وانتقلت الخلافة إلى المأمون وانتقل على ضوئها إلى بغداد حتى انتشرت في عهده الترجمات، وانتهت في زمانه الحركة العلمية وتقدم في علم الأوائل، وترجمت الكتب الفلسفية من اليونانية إلى العربية وغيرها، وظهرت حركات فكرية متعددة، واشترك في المناظرات والحوار بين الأديان والمذاهب، وبذلك نستطيع أن نقول أن عصر المأمون عصر الثقافة والنبات الفكري[2].

ب- **الحياة الثقافية:**

كان استقرار الدولة العباسية، أثر كبير على النشاط الثقافي في عهد الجاحظ، " كان لاستقرار الدولة العباسية –في عهد الجاحظ- أثر على نشاطها الثقافي، ففي هذا الحقل كانت البصرة موطن التفكير المنطقي، وفيها نشأت القدرية التي أكملتها المعتزلة، وفيها ظهرت مدرسة اللغويين التي اعتمدت الاستقراء الأسلوبي والقياسي، وكان من ثمارها " الكتاب" لسيبويه و" العين" للخليل بن أحمد و"البيان والتبيين" للجاحظ"[3]، ومعنى

[1] عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص45.

[2] ينظر؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط 16، ج3، د ت، ص39.

[3] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص66.

هذا القول أنه كان لاستقرار الدولة العباسية، السياسي والسيطرة القوية للخلفاء، وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء والأدباء، أن ظهرت في الدولة مدارس فكرية، فظهرت في البصرة والتي كانت منشأ الجاحظ وولادته فيها، أن ظهرت مدرسة اللغويين التي اختلفت فيها عن مدرسة الكوفة، فكانت مدرسة البصرة تقوم على الاستقرار والقياس، بينما أكدت مدرسة الكوفة على السماع والنص، فظهر بالبصرة " كتاب"سيبويه وموسوعة "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، "البيان والتبيين" للجاحظ، وظهرت في الكوفة شخصيات كبيرة كان لها دور بالأدب والأدب الكسائي وغيرهم، ومن ثم قامت مدرسة بغداد لتجمع بين المدرستين مدرسة البصرة والدولة فظهر بها نحلة وعلماء وأدباء أثروا الثقافة العربية بإنتاجهم الخصب، " وشجع الخلفاء العباسيون العلم والعلماء، وبنوا دورا للكتب واهتموا بالنابهين منهم من الأدباء فكانت حركة علمية وأدبية مزدهرة"[1] وكانت الثقافة في هذا العصر على ثلاثة ألوان.

أولا: الثقافة العربية الخالصة"وكانت معتمدة على القرآن الكريم والحديث الشريف، وما صلح من أشعار العرب وكلامهم وكلام الصوفية"[2]، ومعنى هذا اللون أنه كان معتمدا على الثقافة العربية الخالصة، وكانت تستقي ثقافتها من القرآن الكريم، فكان الأدباء يبدؤون طلبهم العلمي بكتاب الله، ثم يأخذون من الأحاديث النبوية وما فيها من بيان وبلاغة، أما الكتاب الكريم فكان المرجع الأول للبلاغة، ثم يأخذون مصالح من أشعار العرب وخاصة الشعراء الجاهليين، والشعراء المخضرمين، لما في شعرهم من فصاحة، ونقاوة ولغة سليمة وخالية من المفردات الأعجمية، أما شعر المحدثين فقد تركه الأدباء والعلماء لأنه ابتعد عن الفصاحة واختلطت به مفردات أعجمية.

ثانيا: "الثقافة اليونانية التي أمدت الحركة الثقافية بالنظرة الفلسفية والمنطق السليم.

[1] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص67.
[2] المرجع نفسه، ص66.

ثالثا: الثقافة الشرقية من فارسية وهندية، وقد نشأت عن طريق التجارة، ومن الهنود المشهورين في الإسلام الشاعر عطاء السندي وابن الأعرابي"[1].

من خلال اللون الأول والثاني يتبين لنا أنه كانت فيها الثقافة اليونانية وما فيها من فلسفة وحكم الأوائل، بالإضافة إلى الثقافات الفارسية والهندية وما تحتويه من فلسفات هندية، وترجمة كتب الفلسفة والحكمة اليونانية من كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهم من سلاطين الفلسفة، واشتهرت في هذا العصر مدارس فكرية متنوعة في بلاد فارس مثل مدرسة جند يسابور وغيرها، ومنه " لا نستطيع الفصل بين الحياة الثقافية والاجتماعية إلا على سبيل الدراسة العلمية ليس غير، لأنها تتداخل مع بعضها البعض، وتتعاون في إعطاء صورة كاملة للعصر، تلك العوامل عاشها الجاحظ، وأثرت في ثقافته وتكوينه الشخصي، ودليل ذلك أثاره المختلفة الألوان"[2]، بمعنى أنه هكذا كانت البيئة الثقافية للجاحظ، فلا نستطيع أن نفصل بين البيئة الثقافية والبيئة الاجتماعية إلا وفق أسلوب علمي ودراسة علمية، وإلا البيئة متشابكة ويكمل بعضها بعضا، فلا مجال للفصل بين البيئات والتفرقة بينهم، هذه العوامل مجتمعة أثرت في تكوين الجاحظ الثقافي وأثره في أسلوبه الأدبي، وأدت انعكاسا على نفسيته وتشويهه الفكري والأدبي والثقافي.

ج- **الحياة الاجتماعية:**

إن الحياة الاجتماعية في عصر الجاحظ طغت عليها عدة تغيرات "إن محض التفكير في الحياة الاجتماعية لفترة تاريخية محدودة يوحي بمجموعة من المسائل التي لا يمكن تجاوزها، وحديثنا عن الحياة الاجتماعية في عصر الجاحظ يثير لنا جملة من الموضوعات المهمة أبرزها، الترف الذي وصلت إليه الحضارة العباسية في تلك المرحلة وما قاد إليه من تطورات وتغيرات على مختلف صعد الحياة"[3]، ومعنى هذا الكلام أن خالص الحياة الاجتماعية في زمن

[1] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص67.
[2] المرجع نفسه، ص67.
[3] عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص38.

الجاحظ لا يمكن أن تحدد بسبب ازدهار الدولة العباسية في علمها وتطورها الفني والأدبي، فكانت الحياة لهو ولعب ومهارة فنية أدبية، وقد ازدهرت وتمتعت الحياة في ذلك الزمن الأدبي في صعد الحياة الاجتماعية " ضمت الدولة العباسية شعوبا كثيرة، مختلفة في الجنس والديانة، من مسلمين متعددي الفرق ونصارى مختلفي النزاعات ويهود وصبائه، ورزادشتيين، فكانت الحالة الاقتصادية عظيمة وغزيرة مما شجع الترف، واللهو والرقص والتفنن في الملبس والمأكل"[1]، بمعنى الدولة العباسية ضمت شعوبا وثقافات مختلفة نتيجة لاتساع رقعة الدولة العباسية، فضمت ثقافات هندية وصبائه وغيرها من الثقافات، مما ولد اختلافا ثقافيا، ومناخا مختلفا ولد مدارس مختلفة وكانت الحياة الاقتصادية في الدولة العباسية قد تقدمت واتسعت الأوقات والأرزاق وعم الترف والغنى مما شجع على قيام حياة تنبع منها رائحة البذخ والترف، وانتشرت الملاعب، وشرب الخمر والغزل بالذكر، مما ولد لنا التحلل الثقافي والاجتماعي، مما أدى إلى انحطاط في الأخلاق"[2]، إن الحديث في الحياة الاجتماعية في هذا العصر أمر يطول بنا، فمازلنا حتى الآن لم نتحدث عن الجواري والغناء والأخلاق والزهد والتصوف والزندقة والحياة الدينية وكلها أمور مترابطة متلازمة، وأن كنا قد وقفنا على قبائح هذا العصر فإننا لا نعني خلوه من المحاسن"[3]، الظاهر من هذا الكلام معناه أنه قد تحدث عن الكثير من الأمور إلا أن هناك أمور أخرى لم يتحدث بها، كون الحديث عن الحياة الاجتماعية يطول بها المقام، وأن ما ذكره من أمور مترابطة في المجتمع ومتلازمة، وذكر بعض قبائح هذا العصر لا يعني أنه لا يوجد فيه محاسن، بمعنى أن هناك محاسن في المجتمع كما أنه يوجد قبائح تطرق إليها.

"ومن هنا نستطيع إبراز صورة العصر الذي عاشه الجاحظ حضاريا، وذلك بامتزاج جوانب الثلاث السياسية والثقافية والاجتماعية، وحضارة هذا العهد حضارة صقلها الإسلام والعربية، واشترك في خدمتها أهل كل نحلة وملة"[4]، ويعني هذا الكلام أنه وفق هذه المعطيات والثقافات نستطيع أن نعطي صورة واضحة وبعيدة عن

[1] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص68.
[2] ينظر؛ المرجع نفسه، ص68.
[3] عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص45.
[4] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص68.

الضبابية، بإنتاج عناصر العصر الثلاثة، السياسية والثقافية والاجتماعية بالإضافة إلى الاقتصادية نستطيع أن نعطي صورة واضحة، إلى أنه خير عصر ولد ثقافة خصبة وأدب جم، أثرى الثقافة العربية، " ولا شك في أن الازدهار الحضاري بمختلف حوامله الفكرية والعلمية والفنية ضريبة لا بد من دفعها، ولو قارنا سالف حضارتنا في عز أمجادها مع الحضارة الأوروبية والحضارة الأمريكية المعاصرتين لما وجدنا أي فرق يذكر من النواحي الاجتماعية والأخلاقية والأدبية والفنية"[1]، من كل هذا يتبين لنا أن المؤلف يقول بأن الحضارات المزدهرة بمختلف جوانبها من ضريبة تدفعها الشعوب والأمم من جهودها، ونشرها لهذه الحضارة والتبليغ بها والتبذير بها إلى الشعوب الأخرى الغارقة بالجهل والتخلف والجمود، لكي تنتشر المحبة والسلام والثقافة، والتقدم من ربوع الإنسانية، ولو قرأنا حضارتنا السالفة ما وصلت إليه من عز ورخاء وتقدم على الشعوب الأخرى، والأمم السابقة في عصرها، لما وجدنا بينها وبين الحضارة الأمريكية والأوروبية من فارق، سوى أن هذه الحضارة استعملت شعوبها وأسرتها وسرقت خيراتها، تحت مسمى نشر الحضارة، لأعمار للشعوب العربية بينما كانت حضارتنا حضارة رخاء ترفرف على الشعوب والأمم، التي وصلتها الحضارة العربية، " فهذا العصر خير عصور بني العباس على الناس، وفيه سعد العلم، وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ"[2].

وخلاصة هذا القول وما تقدم، نستطيع أن نقول أن العصر العباسي الأول الذي عاش فيه الجاحظ والذي تمثل بحكم خلفاء أقوياء، ووزراء أذكياء شجعنا على العلم والأدباء العصر بما تمتزج فيه من ثقافات، ومذاهب مختلفة، وأفكار متنوعة، ومما حوى فيه من أراء وثقافات كان من خيرة العصور التي انتعشت فيها الثقافة العربية، والأدباء والشعراء، فقد ولدت بيئة خصبة وإثراء ثقافي عالمي، ومادة يستطيع أن يستقي منها كل أطيب ما يراه ويناسبه.

[1] عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص56.

[2] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص69.

كما أن الحياة الاجتماعية المنفتحة وما دخل فيها من ترف ولعب ومجون، وما ضمت فيه الدولة العباسية تحت جناحيها من شعوب وثقافات متعددة كانت هي النسيج الفسيفساء التي شكلت عناصر ومؤسسات الدولة العباسية، وزراء، فرس وقادة أتراك وعناصر أجنبية أخرى، هذا الانفتاح السياسي على الشعوب ولد انفتاح ثقافي على ثقافات هذه الشعوب لما تضمه هذه الشعوب من حضارات وتقدم الحضارة الفارسية والهندية واليونانية وغيرها، عكس أثره على الأدب العربي، فوجدت مناحي جديدة في الأدب، فولدت مفردات جديدة في الأدب من ألفاظ واشتقاقات غريبة وعبارات ومصطلحات علمية صبغت الأدب العربي بالعصر العباسي بطابعها الخاص وهذا ما كان سيحصل لو بقت الدولة الأموية التي كانت دولة منعزلة أو شبه منغلقة على الثقافات الأجنبية ومعتمدة على العنصر العربي فقط فهو عماد الدولة وعميدها[1].

2- حياته:

أ- اسمه:

هو أبو عثمان عمرو "بن بحر بن الكناني البصري المكنى بأبي عثمان، كان التواء ن واضح في حدقتيه فلقب بالحدقي ولكن اللقب الذي التصق به أكثر وبه طارت شهرته في الآفاق هو "الجاحظ" غير أنه كان ينفر من هذا اللقب ويتبرم بمن يدعوه به ويجهد نفسه لكي يقرر في أذهان الناس أنه اسمه "عمرو" لأن هذا الاسم بالنسبة له أرشق الأسماء وأخفها وأسهلها مخرجا على اللسان"[2].

يتبين لنا أن اسم الجاحظ هو ذلك الاسم الذي لا طالما حمل شهرة عظيمة ومكانة مرموقة وواسعة رغم نفوره منه فكان يفضل اسم "عمرو" لأنه يرى فيه سهولة في النطق على عكس الاسم الآخر.

[1] ينظر؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، ج1، 2012م، ص17.

[2] شارل بلا: الجاحظ في البصرة وسامراء: ترجمة إبراهيم الكياني، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر دمشق، ط1، 1985، ص91.

ب– ولادته:

تحيط بولادة الجاحظ اختلافات وغموض بصدد تاريخ ولادته، فالجاحظ ولد بالبصرة والتي تعد المكان الذي وصل إلى أوج ازدهاره فيها ولا نستطيع كما هو منتظر تعيين تاريخ ولادته بدقة، ولا ريب في أنه كان يجهل هذا التاريخ[1].

فعلى الرغم من أن ياقوت الحموي ورد أن الجاحظ قال:

" أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة خمسين ومائة، وولد في أخرها"[2].

يلاحظ من خلال قول الجاحظ حول ولادته أنه أسن من أبي نواس بسنة أي أن عمر الجاحظ أكبر من أبي نواس ومن هنا نرى أن ولادة الجاحظ قد بينها لنا من خلال هذا القول.

كما أجمع جل الباحثين والمؤرخين على أن تاريخ ولادة الجاحظ سنة 100هـ و159هـ و160هـ و162هـ و163 هـ و165هـ، ولكن ميلاده الصحيح هو عام 160هـ، وهنا أصبحت روايات مختلفة حول مولد الجاحظ[3].

كما نجد مولد الجاحظ حسب رأي الدكتور طه الحاجري والذي قال: " نستطيع أن نطمئن إلى أن مولد الجاحظ كان في العقد السادس من القرن الثاني"[4].

كما نجد من خلال هذا القول والذي يدور حول مولد الجاحظ حيث يقر طه الحاجري إلى الاطمئنان إلى أصله فهو عربي عريق وهذا يبعث على الارتياح أن كتب التراجم التي ترجمت له لم تذكر أن أحد من أجداده وقع عليه الرق.

---

[1] ينظر؛ شارل بلا: الجاحظ في البصرة وسامراء، ص91.

[2] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، ج 17، 1999م ص74.

[3] ينظر؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1941، ص140.

[4] طه الحاجري: الجاحظ حياته وأثاره، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1969م، ص89.

هـ- نشأته:

ولد الجاحظ في البصرة في طبقة اجتماعية فقيرة، تعيش في مشقة وتعب، نشأ فيها وقضى معظم عمره وقد توفي والده عندما كان طفل صغير، فتولت أمه أمره التي كانت لا تملك شيئا، كان فقير الحال في بداية أمره[1].

ما يشير إلى أن نشأته كانت بسيطة، ترك دراسته لأن المعاناة التي كان يعيشها حرمته من مواصلة تعليمه ومن أخباره " أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان"[2] أحد نهيرات البصرة.

من شدة فقره كان يعمل نهارا، ويكتسب قوته من عمله، وقد عاش في بيئة تفيض بالثراء، بينما هو فقير ومشوه الخلق، كانت كل أعين الناس تقتحمه لفقره وقبحه، ولهذا أحس بنقص كبير، ولم يجد سبيلا إلا التعليم الذي يعوضه عن هذا النقص، فكان الصبي طموحا ولم يكن فقره عائقا في طلب العلم، فتعلم الخط والقراءة والفقه والحساب، طلب العلم وهو طفل صغير، وكان يعمل ويتعلم في نفس الوقت، وقد تميز بذكائه الشديد، وكان مفتوح المشاعر[3].

وقد كان الجاحظ محبا للعلم وولوعا به، حيث أنه كان يكتري حوانيت الوراقين ويسجن نفسه بداخلها قصد المطالعة، وقد كان معتمدا على أمه، التي ضاقت بها سبل العيش، وقد تألمت من انصراف ابنها للعلم والمطالعة دون العمل[4]، فاشتهر بحبه للمطالعة والقراءة، كونه كان يقرأ ما يستطيع قراءته من كتب ليلا.

ويروى أن أمه كانت تريده أن يتوجه إلى كلية التجارة ولا يضيع عليه وقتا ثمينا في الدراسة، وأنها أعطته يوما بذل من طبق الغداء، طبق كراريس لأنها كانت تضجر منه، وعندما سألها عن هذه الكتب قالت له هذا الذي تجئ به[5]، " عاش الجاحظ عمرا مديدا بدأ بالجوع والفقر والتعب، ثم تطلع مشتاقا طموحا، ثم ثابر بالكدح والكد

[1] ينظر؛ يوسف عطا الطريفي: شعراء العصر العباسي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط 2، 2009، ص297.

[2] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، ج16، 2002، ص74.

[3] ينظر؛ فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأجلو المصرية ، القاهرة، د ط، 2005، ص21.

[4] ينظر؛ حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص553.

[5] ينظر؛ جميل جبر: الجاحظ ومجمع عصره في بغداد، بيروت، د ط، د ت، ص8.

والتعلم، ثم على نجمه فإذا بالبصرة تحت جناحيه وإذا ببغداد تحبه وتطلبه وتؤنس بشتى معارفه"[1]، وعند تنقله إلى بغداد وتصدره للتدريس، كان مقصد طلاب العلم من كل مكان، وذلك لما جاوز الخمسين من عمره، ترك البصرة وذهب إلى بغداد واستقر بها، ونالت كتبه من الحضوة لدى الخلفاء والأمراء ما لم تحظ به كتب عالم أخر.

وهكذا وبعد كل الجهود والكفاح المستميت الذي بذله الجاحظ في سعيه إلى طلب العلم وتحصيله أخيرا استطاع أن يحقق لنفسه ما أراد ووصل إلى الهدف الذي طمحت إليه نفسه، وهكذا أصبح اسمه لامعا في كل مكان[2].

3- منهجه العلمي:

من المعروف أن الجاحظ قد انتهج في كتبه ورسائله منهج علمي جد دقيق، يبتدأ بالشك ليعرض على النقد، وبعدها يمر بالاستقراء على طريق التعميم والشمول.

أ- الشك:

لم يكتف أبو عثمان بالشك كعنصر أساسي من أسس منهجه في البحث العلمي، بل تطرق لمكانته وأهميته الكبيرة من الناحية النظرية في مواضيع كتبه، فالشك عنده لا يختلف عن الإمام الغزالي، والفيلسوف الفرنسي وغيرهم، لأن كل منهم أراد الشك طالبا للحقيقة الواضحة

ب- النقد:

عند تأمل كتب الجاحظ ورسائله، نلاحظ أنه يكشف لنا عن عقلية نقدية بارعة، فنقده بالمعنى الشائع يظهر أكثر ما يظهر في تهكمه وتعليقاته الساخرة التي لم يسلم منها جانب من جوانب المعرفة، ومثال ذلك تهكمه بالخليل بن أحمد الفراهيدي من خلال علم العروض.

[1] حسين الحاج حسنى: أعلام في النثر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1993م، ص93.

[2] ينظر؛ فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص23.

أما نقده المنهجي فقد تجلى في معظم كتبه ورسائله من خلال تعامله في موضوعات متنوعة، ونقده لعلماء عصره وغيرهم، وانتقد بعضهم اتجاه علماء الكلام نحو أمور طبيعية بهدف العناية والدراسة.

ج- **التجريب والمعاينة:**

وتعتبر خطوة مهمة في منهجه البحثي، وقد بدأ ذلك في اتجاهين، أولهما هو أنه قام بالتجريب والمعاينة، وثانيهما نقل تجارب أساتذته، ولقد أجرى الجاحظ تجارب ومعاينات كثيرة ليتأكد من معلومات وصلت إليه، أو لنفي خبر تناهي إلى سمعه ولم يصدقه عقله.

فالجاحظ جرب عدة تجارب منها زراعة شجرة الأراك، ولجأ أيضا إلى تجريب بعض من المواد الكيماوية في الحيوان ولم يكتفي بنوع واحد بل جرب عدة حيوانات[1].

4- أسلوب الجاحظ:

يمتاز أسلوب الجاحظ بأسلوب ولا ينسب إلا إليه " وهو يظهر في شخصيته ظهورا تاما، حتلتستطيع من غير كثير عناء أن تعرف أي الكتب له، وأيها ليست له، هو في تأليفه أنيس محاضر، تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره، تحرر من التزام الجد والثقل والغموض الذي كرهه بين أستاذه الأخفش، كان دائما يخلط جدا بهزل ويسيغك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى"[2]، يتضح لنا من خلال هذا أسلوب الجاحظ وكيف استطاع أن يبرز مدى شخصيته بطريقة واعية.

5- مرضه ووفاته:

لقد ظل الجاحظ منكبا على العلم والتأليف، " ينتقل في سبيل ذلك بين بغداد والبصرة وسرى من رأي إلى أن أدركته الشيخوخة، وأصيب في أواخر أيامه بفالج المرض، ولما اشتدت علته استقر بالبصرة مسقط رأسه فأقام بها

[1] ينظر؛ عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص 17-18.

[2] أحمد أمين، ضحى الإسلام: الجزء1، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، د ط، د ت، ص 406.

البقية من عمره، إلا أنه لم يعف نفسه من الكتابة والتأليف فأخذ ينتج، ثم ازدادت عليه العلة فأصيب بالنقرس أيضا"[1].

ومن هنا يلاحظ شدة الألم والمرض الذي تعرض إليه الجاحظ في شيخوخته، فهو بقي شديد التمسك بالكتب والتأليف على رغم من حالته الصحية الحرجة، إلا أنه لا يزال إلى آخر لحظة من عمره محافظا على ما أنتجه فما أعجب هذا الرجل وكأنما حالته المرضية زادته قوة وتوهجا، فالجاحظ لا يعطي معنا لهموم الحياة المحيطة به بل على العكس فقد زاد جدة وحيوية.

إن طريقة موت الجاحظ كانت بالكتب والمؤلفات وكذا المجلدات التي لا تفارقه والتي اعتاد أن يضعها حوله حتى على فراش الموت والذي كان في شهر محرم سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة[2].

6- نسبه:

كما اختلف الباحثون حول نسبه " فهناك من جعله كنانيا صليبا وهناك من أقر أنه كنانيا بالولاء أعجمي الأصل وقد انحدر من الزنج ولذلك نعت الجاحظ أيضا بالكناني، ومما نطمئن إليه أنه من أصل عربي عريق ومهما يكن من أمر مشكلة أصله فإنها غير ذات شأن يذكر أو يستحق إثارة البحث فيها هنا على الأقل لأن لهذا الأمر شأن آخر، ولأن ذلك من ناحية أخرى لن يتغير أو يؤثر في شيء"[3].

ومن هنا يتبين لنا أن أصل الجاحظ ذو نسب عربي عريق، ويكمن ذلك من خلال ولاؤه للعروبة والتي تتضح أشد وضوحا من حيث كتاباته وهو ذاته وخاصة ما يتعلق برده على الشعوبية وتفنيد حججهم وكما نجد الخطيب البغدادي الذي أشار هو بدوره إلى أصل الجاحظ " ومن بعده ابن عساكر إلى أن الجاحظ ينتسب إلى

[1] حسين الحاج حسن: أعلام في النثر العباسي، ص 92-93.

[2] ينظر؛ فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص32.

[3] فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في التبيين، ص19.

قبيلة مضرية من كنانة ضاربت في جهات مكة، ثم يعلنان دون أي تحفظ أنه إما كناني قح من صلبهم أو مولي لهذه القبيلة"[1].

يلاحظ هنا أن كلا من الخطيب البغدادي وابن عساكر قد أقروا أن أصل الجاحظ من كنانة مولي لهذه القبيلة مضرية، كما أنهما يذكران بعد ذلك خبر يصعد إلى خال أم الجاحظ يموت بن المزرع الذي قال: "كان الجاحظ مولى كأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني الفقيمي أخذ النسأة، وكان فزارة جد الجاحظ عبدا أسودن وكان جمالا لعمرو بن قلع الكناني"[2].

لقد أعطى يموت بن المزرع إلى قوله هذا حول الجاحظ أن مولي كما تحدث عن فزارة جد الجاحظ واصفا إياه بالسواد.

7- آثاره:

للجاحظ آثار عديدة ومتنوعة "ترك الجاحظ ما يزيد عن مئة وسبعين كتابا في مختلف علوم عصره وساعده على كثرة تأليفه امتداد عمره، وانصرف أهل الحكم عن استخدامه لذمامة خلقه، ومرضه الطويل الذي اضطره إلى ملازمة بيته، بمعنى أنه كان شبيه متفرغ للمطالعة والكتابة والتأليف، وتعتبر كتبه موسوعة علمية وأدبية حقيقية وكاملة تشمل على كتب ورسائل"[3]، فلم يترك الجاحظ مصدر للمعرفة إلا وتطرق له، فقد تطرق إلى كل أبواب المطالعة والقراءة.

كما ذكرت أن له العديد من الكتب في الكثير من المجالات لكن كانت أهم آثار التي تركها هي: كتب في الأدب والشعر، لكن الكثير من هذه المؤلفات قد ضاع ولم يصل إلينا، وقد طبعت كتبه المعروفة عدة طبعات وهي:

[1] شارل بلا: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص93.

[2] المرجع نفسه، ص93.

[3] أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، ج1، 2003، ص 14-15.

أ- **كتاب الحيوان (سبعة أجزاء)** [1]: وهو بحث ضخم يتناول فيه المؤلف ، وهو يصف طابع الحيوانات شؤونا لا علاقة لها أبدا بعنوان الكتاب، أنه موسوعة متنوعة تضمنت بحوثا في التعاليم الدينية من اليهودية إلى المانوية إلى الزرداشية إلى النصرانية إلى الإسلامية إلى الإلحادية من دهرية ووثنية"[2]، ويعتبر كتاب الحيوان من أهم مؤلفات الجاحظ الأخيرة الذي اهتم بعلم الحيوان.

ب- كتاب البخلاء: " دراسة أدبية نقدية فكهية جمع فيها أبو عثمان أخبار البخلاء والمبخلين في عصره من أهل البصرة وخرسان بنوع خاص، وصور لنا نماذج حية ناطقة من أولئك الذين استهموا هم الدرهم حتى العماية، فصاروا أضحوكة الناس ومدار تندرهم، أما غايته من هذا الكتاب الطريف، الذي لم يفقد طراوته على الزمان فهي على ما يبد سرد نوادر البخلاء"[3]، نلاحظ أن الجاحظ يلقي أضواء كشافة على بيئة عصره في جميع النواحي، أكثر منه في أي كتاب آخر كونه مرجع وثيق لدراسة المجتمع العباسي، ولا تقل قيمة الكتاب عن قيمته التاريخية فهو من أرشق آثار الجاحظ أسلوبا وأكثرها متعة[4]، كما أنه كتاب علم وأدب وفكاهة، ويعتبر من أنفع مؤلفات الجاحظ.

ت- كتاب البيان والتبيين: لقد وضعه الجاحظ في أواخر حياته كهدية للقاضي[5]، " وقدمه إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وقد أجازه عليه بخمسة آلاف دينار،أجمع المتقدمون من أكابر العلماء وأفاضل الأدباء أن البيان والتبيين من أفضل ما وضع في الأدب"[6] وكان من أبرز وأشهر كتبه على الرغم من تأليفه في أواخر حياته، وكذلك أكثرها ديوعا وانتشارا، وقد جاء هذا الكتاب بعد كتاب الحيوان والدليل أنه أشار إلى أسبقية الحيوان في كتاب "البيان والتبيين" قوله: " كانت العادة في كتب الحيوان أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات

[1] أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص6.
[2] المرجع نفسه، ص 14-15.
[3] جميل جبر: الجاحظ ومجمع عصره في بغداد، ص15.
[4] ينظر؛ جميل جبر: الجاحظ ومجمع عصره في بغداد، ص15.
[5] ينظر؛ عبد اللطيف صوفي: مصادر الأدب في المكتبة العربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د ط، د ت، ص74.
[6] حسين الحاج حسن: أعلام في النثر العباسي، ص97.

الأعراب ونوادر الأشعار، كما ذكرت من عجبك بذلك، فأجبت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله"[1].

ويعتبر هذا الكتاب إلى جانب كتاب " الحيوان" من أهم الآثار والمؤلفات التي وصلتنا من الجاحظ، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء.

ج- **كتاب المحاسن والأضداد:** وقد تضمن البعض من القصص الهندية والفارسية وقصص عربية على لسان الحيوان، وشواهد عن الحب والنساء " حوى قصصا فارسية وهندية على لسان الحيوان، وقصصا عربية، إلى نوادر عن الحب والزواج والنساء"[2]، إلى جانب كل هذا نجد أول كتاب للجاحظ والذي نزل بالأندلس وهو:

د-**رسالة التربيع والتدوير:** هي رسالة وضعها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهاب وأفرغ فيها من سمه بقدر كبير، ومما قاله في قذع بن عبد الوهاب أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا انتحال لاسم الأدب"[3]، وقد افتتح الجاحظ هذا الكتاب بوصف خلقه ابن عبد الوهاب، ولهذا اشتهر بالتربيع والتدوير.

ذ- **سائر الرسائل:** تطرق الجاحظ في كتابته إلى مواضيع كثيرة لا تعد ولا تحصى "كتب أبو عثمان، رسائل كثيرة، إضافة إلى هذه الكتب في مواضيع شتى"، منها في الفلسفة والدين، كرسالته في فضيلة المعتزلة أو الرد على النصارى، ومنها في السياسة كرسالته في مناقب الترك، وأفخر السودان على البيضان أو العثمانية أو رسالة بني أمية، ومنها اجتماعية كالفيان والعشق"[4]، وغيرها من الرسائل، كما هناك عدة رسائل نسبت للجاحظ، لكن أمرها يثير بعض الشك[5].

---

[1] فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص39.

[2] حسين الحاج حسن: أعلام في النثر العباسي، ص105.

[3] جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، ص16.

[4] المرجع نفسه، ص17.

[5] ينظر: المرجع نفسه، ص17.

كما قيل عنه " أنه لو أراد الجاحظ أن يتخصص في شعبة من شعب المعرفة لما استطاع، وذلك لعبقريته ودقة حسه وقراءاته الكثيرة، فكان نتيجة لتلك الثقافة الغزيرة المتنوعة أن ألف وأنتج كتبا عدة تربو الخمس والمائة كتاب، ولقد صدق القاضي الفاضل في قوله: "مامنا معاشر الكتاب الأمن دخل من كتب الجاحظ الحارة، وشن عليها الغارة وخرج على كتفه منها كارها"[1]، معنى هذا القول هو أن القاضي الفاضل يمتدح كتب الجاحظ ويثني عليها، باعتبار أن الأدباء لا يمكنهم الاستغناء عما بادت به كتب الجاحظ من العلوم، ولقد كان الجاحظ موسوعة معرفية متنقلة، كونه كتب في شتى المعارف والعلوم[2]، " وكان الجاحظ مصورا بارعا لعصره في تلك المؤلفات القيمة في سياسته وأخلاقه ونزاعاته ومذاهبه، وعلومه في أصولها وفروعها، فالكتب والرسائل التي كتبها أو التي نسبت إليه كثيرة، وهي مذكورة في معجم الأدباء لياقوت، أما الذي وصل إلينا منها فقد طبع معظمه ولا يزال بعضه مخطوطا في خزائن شتى بين الشرق والغرب"[3]، أي أن الجاحظ كتب كثيرا من الكتب عن السياسة والعصر الذي كان فيه عصر الازدهار هو العصر العباسي، وقد تفنن في كتابة الأدب وفنون في ذلك العصر، فكتب الجاحظ طبعت وانتشرت في أنحاء العالم لوقتنا هذا، من أساليب لغوية ونحوية في كتبه الأدبية، " وقلما كتب أديب مقدار ما كتبه الجاحظ فهو لم يدع بابا إلا ولجه ولا بحثا إلا جال فيه، ولقد كان له من الثقافة الموسوعية ما جعله يكتب في كل فروع العلم والأدب والسياسة والدين والفلسفة واللاهوت المعروفة في زمانه"[4]، معنى هذا أن مقدار ما كتبه الجاحظ مقارنة بما كتبه الآخرون أكثر، والدليل أنه لم يترك مجالا إلا دخله وكتب فيه ما كتب، ولا بحثا إلا وطاف فيه أي قرأه، غير أنه كتب في كل فروع العلم، أدب، سياسة، دين، لاهوت (بحث في الذات الإلهي)، كما قيل أيضا أن الله منح للجاحظ قدرة نادرة على غيره وصبرا عجيبا على الابتكار والإبداع والتأليف في جميع الفنون والعلوم التي

[1] محمد بركات حمدي أبو علي: **دراسات في الأدب**، ص10-11.

[2] ينظر؛ الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، ط6، ج3، د ت، ص78.

[3] ينظر؛ الجاحظ حياته وآثاره، ص11، 81.

[4] جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، ص14.

عرفت في عصره وقبله، حيث أنه خلف ثروة ضخمة من الكتب والرسائل، ازدانت بها المكتبة العربية"[1]وقيل أن العصبيات السياسية والمذهبية والدينية التي تفشت في المجتمعات الإسلامية أحد الأسباب في عدم الوصول تلك الآثار والقضاء عليها، ومن هنا لنا الجاحظ مصورا لعصره أحسن تصوير وكتابه البخلاء أحد جوانب الحياة في عصره"[2]، ومجمل هذا القول أنه: أدت العصبية السياسية والدينية والمذهبية التي كانت موجودة في العصور الإسلامية الأولى إلى اندثار الآثار الأدبية والمدنية التي كانت موجودة، فكل مذهب ديني أو طائفة سياسية تميل إلى جماعتها وتحارب الجماعة الأخرى بمحو ومسح كل ما يخص ما يخالفهم... مما أدى إلى قلة المراجع الأدبية واللغوية التي تتحدث عن هذه الحقبة، ويعد كتاب الجاحظ من الكتب القليلة التي تحدثت عن هذا العصر، أي العصر العباسي من خلال التطرق إلى مختلف مناحي الحياة وأسلوب العيش والتعليم، وقد تباينت آراء المؤرخين في تحديد عدد كتب الجاحظ وعناوينها، وأن الجاحظ عددها في مقدمة كتاب الحيوان وكانت نحو ستة وثلاثين كتابا إلا أنه يوجد تضارب لدى المؤرخين في إحصاء عددها وكانت بين المائة والمائتين، وهذا ما جاء في كتاب فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، وهناك الذي كتب عن الجاحظ في الموسوعة الإسلامية، يرى أن الجاحظ خلف حوالي مائتي أثر، خمسون صحيح النسبة، ومعها ثلاثون بين الموثوق والمشكوك.

ومن خلال ما لاحظنا في آثار الجاحظ أن كتبه بلغت شهرة ومكانة وأهمية ما لم تبلغه كتب الأقدمين من سابقيه ومعاصريه واللاحقين عليه[3].

[1] ينظر؛ فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص33.

[2] محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، ص81-82.

[3] ينظر؛ عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص22-23.

8- فلسفة الجاحظ:

تتمثل فلسفة الجاحظ باعتباره فيلسوفا من خلال إعطائه وتقديم أفكار فلسفية ومواضيع تختلف من حيث الموضوعات سواء أكانت فيزيائية أو ميتافيزيائية، فنجده تطرق إلى الحديث في مشاكل اجتماعية ودينية وجمالية ... وأضفى عليها من شخصيته، فهو حقا يلقب بالفيلسوف لما له من جدارة وثقة بما يقدمه[1].

كان فضل الجاحظ على " الأدب والفلسفة جميعا، ففي الأدب كان فضله أنه أغرز معانيه وجعل له موضوعا بعد أن كان يكون شكلا بحثا، فتقرأ رسائله فتجدها ناصعة الأسلوب، غريزة المعنى، لها موضوع ولها شكل، هذه رسالة من قيان وهذه رسالة في المعلمين، وهذه رسالة في الغناء، حتى رسالته في الهجاء، وهي رسالة " التربيع والتدوير" استطاع أن يجعل لها موضوعا علميا[2].

ومن خلال ما ذكر الجاحظ يتضح بأنه مكانة عالية ومرموقة ويظهر ذلك من كثرة المعاني والأساليب والمواضيع التي تحمل في طياتها شكل.

9- اعتزاله:

يعتبر الاعتزال من الفرق الكلامية التي ظهرت في العصر العباسي، إذ يعد الجاحظ أحد فضلاء المعتزلة والمصنفين لهم "باختياره مذهبا اعتقد به اعتقادا راسخا في سن مبكرة عندما كان لا يزال عالة على أمه" لا يستطيع العيش بعرقة الجبين حيث تتلمذ على شيخ المعتزلة الكبير إبراهيم بن سيار النظام وعاش في أجواء المعتزلة، يحضر حلقاتهم ويسمع مناظراتهم في المساجد ومجالس مويس بن عمران 246هـ[3].

[1] ينظر؛ عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، ص14.

[2] أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، ج3، 2001م، ص138-139.

[3] علي بوملحم: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993م، ص197.

مما سبق ذكره نرى بأن الاعتزال عند الجاحظ لا يزال عالة على أمه وبأنه عاش أجواء المعتزلة بحضور معظم الجلسات والمعتزلة عند الجاحظ عبارة عن طبقات وكل منها شأن خطير حيث قال عنهم: " لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل".

ومن هنا نقول أن مكان المتكلمين ومكان المعتزلة في نظر الجاحظ لهما شأن كبير فلولا كل منهما لا تعرضت إلى فناء الأمم وكذا النحل[1].

إن المعتزلة ظهرت في مطلع القرن الثاني للهجرة في مدينة البصرة " وسميت بالمعتزلة لاعتزالها قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر، فالمعتزلة ذو أصل سياسي النشأة، فهي نشأت في نفس جو الشيعة والخوارج، كما اهتمت بتعاليم منها التوحيد والوعد والوعيد والعدل والمنزلة بين المنزلين وأخيرا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[2]، ولقد اهتمت المعتزلة بتعاليم بينت من خلالها أن وظيفة كل منها.

ومن أهم تعاليم المعتزلة نجد:

أ– التوحيد: إن التوحيد أهم مبادئ المعتزلة حيث قاموا بشرحه وإعطائه معنا واضحا وتفسيرا محللا حتى وصلوا إلى إبراز وإخراج ما يدور في أعماقه، فالتوحيد هو واحد في ذاته وواحد في صفاته، والمسلمون يمتازون به ويعتقدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو من العقائد الأساسية وأولى عقيدة آياته تدل على التنزيل مثل قوله " وليس كمثله شيء"[3] حيث كان كثير من علماء المسلمين في ذلك العصر" يؤمنون بالتنزيه إجماليا ويمسكون عن الكلام في الآيات الأخرى كأية الاستواء على العرش والوجه، واليدين والجهة ويقولون أننا نؤمن بوجود الله ووحدانيته، ولا نذهب وراء ذلك، لأنه لا يجب علينا أن نعرفه وإنما يجب علينا أن نؤمن به كما ورد، وإننا إن دخلنا في تفصيل ذلك وتأويله كان تأويلنا قولنا لا قول الله، وهو عرضة للخطأ، فيجب أن نتحرر منه"[4].

---

[1] جميل جبر، الجاحظ مجمع عصره في بغداد، بيروت، د ط، د س، ص22.

[2] حنا الفاخوري، تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب، الشركة المصرية العالمية للنشر، مكتب لبنان، ط1، 2002م، ص140.

[3] ينظر؛أحمد أمين: ضحى الإسلام، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ط 7، ج 3، د ت، ص22.

[4] المرجع نفسه، ص23.

ومن خلال هذا نجد أن المسلمون كانوا يؤمنون بوحدانية الله عز وجل وهو مقدور بين القادرين ولا قسيم له في أفعاله ومن ثم يتبين التوحيد.

ب– العدل: وهو ثاني أصل من أصول المعتزلة حيث كانوا يفتخرون بأنهم أهل عدل وتوحيد " والمؤمنون جميعا يعتقدون بعدل الله، ولكن المعتزلة تعمقوا في معناه وأثاروا مسائل كثيرة أهمها:(قالوا وجدنا من فعل الجور في الشاهد رأي في الإنسان مشاهدة أعماله)"[1].

ومن هنا يتبين لنا معنى العدل أي كل إنسان عند الله وله أعمال يحاسب عليها، وقد واصلو بحثهم إلى مسائل كثيرة أهمها ثلاث:

- أن الله يسير بالخلق إلى غاية وأن الله يريد خير ما يكون لخلقه.
- وأن الله لا يريد الشر ولا يأمر به.
- وأن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرا ولا شرا، وأن إرادة الإنسان حرة، والإنسان خالق أفعاله، ومن أجل هذا كان مثابا على الخير معاقبا على الشر[2].

ومن خلال هذه المسائل ثلاث نرى بأن الحكم لا يفعل فعلا إلا لحكمة وغرض كما أن الحكيم إما أن ينتفع أو ينفع الآخر به، فالله عز وجل لا يأمر بفعل الشر فهو يأمر بأشياء وينهي عن أشياء مذمومة وقبيحة، كما أنه عندما خلق الإنسان خلق حرا أي أن كل إنسان مسؤول عن أعماله وأفعاله.

فالعدل مرجعه محاسبة كل إنسان على أعماله " فهو مسؤول عنها أم غير مسؤول، فهذه القضية قديمة جدا، شغلت العقل البشري منذ أقدم العصور ولما جاء الإسلام، رأى معتنقوه في القرآن آيات تقول الجبر"[3].

[1] ينظر؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص44.
[2] المرجع نفسه، ص45.
[3] حنا الفاخوري: تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب، ص147.

وهذا معناه أن كل إنسان بشري يجب أن يعدل كل ما يقتضيه العقل من الحكمة، وأن يصدر الفعل على وجه الصواب والمصلحة، ونجد آيات قرآنية ومن خلالها نجد الجبر في آياتها التالية: قوله تعالى:﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا ﴾ [سورة التوبة، الأية 51]، وكذلك قوله تعالى:﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية 177]، وكذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [سورة المؤمنون، الآية 62][1].

تؤكد لنا هذه الآيات القرآنية الكريمة بشكل واحد لحرية الإنسان.

ج- الوعد والوعيد: فكلامه أزلي أي وعد على ما أمر، و أوعد على ما نهى، وهو أحد أصول المعتزلة، كما أن الله سبحانه وتعالى ينفد وعده ووعيده لأنه أمر ملزوم به نفسه، ومن هنا نجد الوعد والوعيد هو أحد فروع مخصب المعتزلة في العدل وليس ذو أصل ذاتي[2].

د- منزلة المنزلين باعتبارها مبدأ للمعتزلة فإنها تنظر إلى الماضي على نوعين منها معاصي كبيرة وأخرى صغيرة، وقد قاموا بتقسيم الكبيرة إلى نوعين أيضا، فمنها ما يخل بأصل من أصول الدين كالشرك واعتقاد وقوع الظلم من الله، ومنها مالا يخل بأصل من أصول الدين كالقيام بقتل النفس أو الزنى فمن قام بهذا الفعل فليس بمؤمن[3].

ونجد كذلك أحد تعاليم المعتزلة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليس لهذا الأصل صلة بالعقائد بل هو تكيف والبحث فيه من اختصاص الفقه"[4]، وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة بهذا المعنى، منها قول الله تعالى:﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾ [سورة أل عمران الآية

[1] حنا الفاخوري: تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب ، ص149.
[2] ينظر؛ المرجع نفسه، ص151.
[3] ينظر؛ المرجع نفسه، ص151.
[4] ينظر؛ المرجع نفسه، ص154.

104] وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾ [سورة لقمان، الآية 17].

المعتزلة وهم أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية والعدلية " وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا، وقالو: لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى، احترازا من وصمة اللقب، إذ كان الذم به متفقا عليه لقول النبي عليه الصلاة والسلام: " القدرية مجوس هذه الأمة"، وكانت الصفاتية تعارضهم بالاتفاق، على أن الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل التضاد"[1].

ومن خلال ما سبق ذكره يمكن القول أن لفظة القدر أطلقت لقولهم بقول جهنم في إنكار القدر ولقولهم بعدل الله وحكمه، والقدرية تطلق على كل من يقول بالقدر خيره وشره من الله عز وجل.

لقد انفرد الجاحظ عن أصحابه بمسائل منها قوله " إن المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعبد سوى الإرادة، وتحصل أفعاله من طباعا"[2].

ويفهم من خلال هذا أن الأفعال طباع لاكبا لزم أن لا يكون له عليها ثواب ولا عقاب إذ لا يثاب ولا يعاقب على ما لا يكون كسبا له، كما لا يثاب ولا يعاقب على لونه وتركيبة بدنه إذا لم يكن ذلك من كسبه وهذا يخالف قوله وتعالى: "كل امرئ بما كسب رهين".

كما ذكر " بأن أهل النار وكان يقول النار تجذب أهلها إلى نفسها من غير أن يدخل أحد فيها ومذهب الفلاسفة في نفي الصفات، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة"[3].

أي أن المعتزلة لا يمكنها إثبات القدر خيره وشره إلا بالعدل.

[1] أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني: الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعوذ، بيروت، لبنان، ط 3، ج1 1993م، ص56.

[2] المرجع نفسه، ص88.

[3] المرجع نفسه، ص88.

الفصل الأول:

أصـول البيـان

المبحث الأول: ماهية البيان

اشتهر قدماء المصريين بالفن الفرعوني، واليونانيين بالفلسفة الإغريقية، والعرب بالبيان في فصائله المتشعبة تلك حضارات عريقة، تلاشى بعضها وتماسك البعض الأخر وبقي البيان العربي راسخا ثابتا متطاولا، وظل عطاؤه شامخا فتيا متعاليا.

فالشعر والنثر جهد بشري متكامل البنية في الجاهلية والإسلام والقرآن وحي سماوي يتحدى البشرية في إعجازه، كما أن التراث اللغوي القديم يتسم بسعة عناه بالمعارف والمعلومات المتنوعة فجاءت جهود العلماء وتصوراتهم للربط بين كل العلوم في سياقات علمية مختلفة.

وهكذا جعل علماء البلاغة البيان أحد أقسام الثلاثة التي ينقسم إليها علم "البلاغة العربي" فجاء البيان في المرتبة الثانية تبعا لهذا التقسيم (المعاني، البيان، البديع)، حيث تطورت هذه الدراسات البلاغية على يد العديد من الدارسين واللغويين ومن بينهم " الجاحظ" صاحب كتاب " البيان والتبيين" الذي يعد درسا في البيان العربي، مما جعلنا نقف على ضفاف قضية والتي لها عنوان (أصول البيان)، وقد تطرقنا في هذا الفصل إلى تمحيص في البيان لغة، البيان اصطلاحا، والبيان في معرفة كيفية نشأته ووصولا إلى تطوره، وفرز المؤشرات البلاغية المرتبطة بالبيان[1].

أ- البيان لغة:

جاء في لسان العرب أن البيان هو: " الفصاحة واللسن، وكلام بين فصيح".

والبيان: الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: الفصيح، ابن شميل: البين: من الرجال السمح اللسان الفصيح الطريف العالي الكلام القليل الرتج، وفلان أبين من فلان أي أفصح منه وأوضح كلاما[2]".

[1] ينظر؛ محمد حسين علي الصغير: أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص5.

[2] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط8، ج1، 2014م، ص199.

كما عرفه أيضا الفيروز آبادي بأنه: " الإفصاح مع ذكاء، والبين الفصيح، ج: أبيناء وأبيان وبيناء[1]" ومنه فالمعنى اللغوي للبيان هو الإيضاح والظهور.

وقد وردت لفظة "البيان" ومشتقاتها كثيرة في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) ﴾ [سورة الرحمن، الآية من 1-4]، فالبيان هو ما يميز الله سبحانه وتعالى به الإنسان عن سائر خلقه وفضله به عليهم.

وقد قيل أن البيان في اللغة هو:" الوضوح والظهور ويقال بان الشيء بيانا إذا اتضح وظهر واستبان الشيء: ظهر وأبنته: أي وضحته[2]"، ويبدو أن معنى البيان في هذا الموضع هو الكشف والوضوح والظهور.

ب- **البيان اصطلاحا:**

لقد عرف أحمد الهاشمي البيان بأنه:" أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى"[3].

فالمؤلف رحمه الله يريد القول أن البيان له أصول وقواعد ترتكز على علوم البلاغة (المعاني، البيان والبديع) في أغلبها، وهذه العلوم الثلاثة بالنسبة للبيان العربي كصمام الأمان الذي يحفظ هذا البيان من الزلك والخطأ، أما طريقة التعبير الإنشائي عن المعاني فهي تختلف كما ذكرنا سابقا باختلاف طرق التعبير، واختلافها راجع إلى أسلوب التفكير التعبيري.

كما جاء في تعريف أخر بأنه: " علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد"[4]، فالظاهر من هذا التعريف أن المقصود بالبيان هو سياق الكلام الدال على المعاني المراد فيه، وربما كانت الدلالة اللفظية على تلك المعاني مختلفة

[1] الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: خليل مأمون شيحة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، ج1، 2009م، ص146.

[2] عاطف فضل: مبادئ البلاغة العربية، دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م، ص38.

[3] أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، الإدارة العليا للحوارات العلمية، ط9، 1396م، ص169.

[4] مختار عطية، علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع دراسة بلاغية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د ط، 2004م، ص142.

الطرق، ودلالات هذه الطرق على المعاني تختلف بالزيادة فيها أو بالنقصان، فمثلا قد يكون التعبير عن معنى معين بلفظ معين أدل على معناه من لفظ آخر وتعبير آخر، إذا كانت فيه زيادات معينة تقتضيها الدلالة.

2- نشأة البيان وتطوره:

البيان قبل الجاحظ:

لقد اختلفت الآراء حول نشأة البلاغة والبيان وتعددت، فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة قد نشأت في عهد متأخر والجاحظ هو أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربي، ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة حيث أنها قد سبقت القرآن الكريم وتطورت بعده، وأن أكثر الفنون الأدبية قد أخذت شواهدها من القرآن الكريم[1].

فهذه المرحلة تعتبر أقل المراحل وضوحا وأكثرها استعصاء كونها تمثل طور نشأة العلم وبداية التطرق لمسائله المختلفة، حيث أنها واجهت المشتغلين بتاريخها عقبات ولاقوا نفس المشاكل في تحديد أوائلها[2].

وقيل أن البلاغة العربية ترتبط قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه من حالة الثبات والاستقرار في الأذهان بعلومها الثلاثة المعروفة لنا اليوم، بقواعدها وأصولها وهي: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع.

وقد يتبادر إلى الأذهان أنها مرت بفترة زمنية طويلة استغرقت أربعة قرون هذه العلوم الثلاثة البلاغية، وقد نشأ كل واحد منها مستقلا عن الآخر بمباحثه ونظرياته ولكن الواقع غير ذلك، فقد مرت بفترة زمنية طويلة استغرقت أربعة قرون قبل أن تنتهي إلى ما انتهت إليه اليوم، وكانت ملامحها في البداية بسيطة ومتواضعة وفي الوقت نفسه تابعة للعلوم الأخرى ومختلطة بها، منذ نشأة الكلام عنها في كتب السابقين الأولين من علماء العربية وكانوا يطلقون عليها البيان.

---

[1] ينظر؛ الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، المكتبة الأزهرية للتراث، رب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف، تح: عبد المنعم الخفاجي، ط3، 1993م، ص137.

[2] ينظر؛ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، د ط، 1981م، ص19.

في هذه المرحلة لم تكن ملامح البلاغة ولم يكن لها القدرة على تبني مسائل وقضايا كاملة، إنما كانت عبارة عن ملاحظات وأفكار منتشرة داخل مصنفات العلوم الأخرى التي سبقتها في النشأة واضحة تماما.

وقد أخذت الملاحظات البيانية تنشأ عند العرب منذ العصر الجاهلي، فقد وجدت عندهم ملاحظات نقدية على بعض من الشعراء وقد ورد في كتب الأدب نماذج متنوعة من هذه الملاحظات وقد كان سوق عكاظ خير موقع لتجمع الشعراء وعرض نتاجهم الأدبي، وكان الحكم على تلك الأشعار النابغة الذبياني الذي كان ينصب له في السوق قبة حمراء من أدم يتوافد فيها الشعراء وينشدون أشعارهم بين يديه فيحكم ويقول كلمة الفصل فيها ثم ينتشر حكمه بين الناس ولا يستطيع أحد بعد ذلك معارضته، ثم مضت هذه الملاحظات تنمو بعد ظهور الإسلام فظهرت عوامل عديدة أدت إلى الاعتناء بصياغة الكلام وإظهار المعاني والتراكيب بصورة جميلة وجذابة وكان أهم هذه العوامل نزول القرآن الكريم الذي كان له الأثر البالغ في نفوسهم ورقة أحاسيسهم وتسامي أذواقهم وكانوا قد انبهروا ببلاغة القرآن ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الإتيان بمثله فأخذوا يعزفون على جماليات خصائصه ومظاهر نظمه، كذلك أدى استقرارهم بالمدن والقصبات إلى توطينهم وتحضيرهم وأخذهم من الثقافات والأقوام التي سكنت في جوارها[1].

لقد كان شعراء العصر الجاهلي يقفون في أساليب البيان عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور بالطبع والسليقة وصفاء قريحتهم، لكونهم أهل اللغة والبيان، ومع ذلك كانوا أحيانا يسوقون ملاحظات ووقفات لا ريب أنها تصلح أن تكون أصل في الملاحظات البيانية وأساس للقواعد البلاغية في بلاغتنا العربية، ومن يتصفح أشعارهم وأساليب بلغائهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات البلاغية وتتناثر من حين لآخر ألوان من المقابلات والجناسات والاستعارات والتشبيهات، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بمحسنات الكلام

[1] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان في البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دط، ج2، 1985م، ص7.

والتفنن في معرض البليغة، وأخذت تنمو هذه العناية بالألفاظ والمفردات والتراكيب والالتفاتات البلاغية بعد ظهور الإسلام بفضل ما كان من نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة[1].

ثم الجدل الشديد الذي تم بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة والسياحة المعتزلة والخوارج والشيعة فكان طبيعيا لذلك أن تكثر الملاحظات البيانية والنقدية تلك التي نلتقي بها ونراها في تراجم الشعراء الجاهليين والإسلاميين في كتب مثل الأغاني لأبي فرج الأصفهاني وغيرها.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي فإننا نجد بالإضافة إلى نمو الملاحظات البلاغية والنكت البلاغية وتسجيلها ومن أوائل العلماء الذين بحثوا في البلاغة كثيرا وكتبوا ما يتعلق بها في القرن الثالث هجري هو أبو عبيدة محمد بن المثنى كان من أئمة اللغة والنقد الذي حلل في كتابه مجاز القرآن بلاغات الكثير من آيات القرآن الكريم، وكذلك الفراء بكتابه "معاني القرآن"، وكذلك الجاحظ الذي جمع في كتابه "البيان والتبيين" الكثير من بلاغات العرب وتحديدهم لمعنى البلاغة والفصاحة، إلا أن تناوله للفصاحة كان منصبا على سلامة اللغة والصلة بين الألفاظ والعيوب الناجمة عن تنافر الحروف ثم الكلام على الجملة والعلاقة بين المعنى واللفظ ثم على الوضوح والإيجاز والإطناب والملائمة في الخطبة وموضوعها ثم الكلام على هيئة الخطيب وغيرها.

ويعتبر بحق من الأوائل والرواد الذين كتبوا في علم البلاغة والبيان وقد أدى رقي الحياة العقلية في الدولة العباسية إلى ظهور طائفتين من المعلمين اعتنت بشؤون اللغة والبيان، إحداهما طائفة محافظة وهي طائفة اللغويين وهؤلاء كانوا يعلمون رواية الأدب وأصوله اللغوية والنحوية وكان اهتمامهم بالشعر الجاهلي والإسلامي أكثر من اهتمامهم بالشعر العباسي.

[1] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط 9، 1119م، ص13.

ولذلك كانوا محافظين على اللغة والرجوع إلى أوائل شعرائها العرب وقد هداهم البحث في أساليب الشعر القديم من ناحيتها اللغوية والنحوية في استنباط بعض الخصائص الأسلوبية على نحو ما نجد في كتب سيبويه العالم النحوي واللغوي من مثل كلامه عن التقديم والتأخير والحذف والذكر و التعريف والتنكير.

أما طائفة العلماء المعلمين الأخرى والتي ظهرت في العصر العباسي فهي طائفة علماء الكلام وفي مقدمتهم المعتزلة حيث كانوا يعلمون ويدربون تلاميذهم على فنون الخطابة والجدل[1].

أما ما يعود إلى تطور الشعر والنثر فمرده إلى أن كثيرا من الفرس والموالي من غير العرب أتقنوا العربية وأحبوها واتخذوها لسانهم ولغتهم في التعبير عن عقولهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وقد أمست لغتهم التي مست شغاف قلوبهم فخدموها وأظهروا في ذلك براعة في التعبير عنها منقطعة النظير فما لبثوا أن أصبحت لغتهم الأولى ونسوا ما كانوا عليه من لغات سابقة.

وقد أخذوا هم ومن يرجعون إلى أصول عربية خالصة يشعرون بجامعة العروبة العامة ويتنفسون من رحيق الحضارة العباسية وثقافتها ويصطبغون بألوان أصباغهم الثقافية المتنوعة وينهضون من خلال ذلك بالنثر والشعر نهضة واسعة عرضة تمتد على جميع مناحي الثقافة ونستطيع أن ننظر في النثر فتراه يتطور تطورا رائعا إذا نشأ فيه النثر العلمي الخالص من علوم و منطق وفلسفة ورياضيات وغيرها من العلوم.

واستوعب آثارا أجنبية وثقافات متنوعة كثيرة نقلت إليه منها الأدبي والسياسي، ومنها الفلسفي ويكفي أن نذكر في هذا الصدد الأديب البارع ابن المقفع فقد ترجم عن الفارسية كتبا تاريخية وأدبية وسياسية متنوعة كما ترجم كليلة ودمنة وأجزاء من منطق أرسطو، واتسعت الترجمة بعده وأسست دار للحكمة في بغداد ونقلت لها الكتب، وأكبر المترجمين من السريان وغيرهم من الفرس والهنود والأعاجم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي

[1] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان في البلاغة العربية، ص 7-9.

وكان ذلك تحولا كبيرا في الفكر العربي ، إذ اصطبغ بثقافات أجنبية كثيرة وأخذت أوعية لغته تحمل كل معاني التراث الحضاري القديم لهذه الشعوب والحضارات واتسعت جنباتها سعة شديدة[1].

كما أن البيان يعتبر كتاب العقيدة الإسلامية وآياتها المعجزة وهو من أهم ما اعتمد عليه في خدمة العقيدة الإسلامية[2] .

إن أول من تطرق إلى علم البيان قبل الجاحظ ووضعه هو أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن، وبشر بن المعتمر.

أ- أبو عبيدة عمرو بن المثنى(209هـ).

وكما ذكرنا سابقا أن أبا عبيدة من أوائل وأقدم الذين بحثوا في البلاغة وكتبوا في البيان وأن كلمة المجاز التي جاءت في كتابه لم يكن يقصد بها ذلك المعنى البلاغي الذي عرفه علماء البلاغة فيما بعد لأن هذا العلم كان لازال غير مدون وفق الصيغ والقواعد والتصنيف الذي حدده له علماء البلاغة وجعلوه علما قائما بذاته ، وهو استعمال اللفظ أو التركيب في غير المعنى الطي وضعته له العرب لعلاقة مع قرينة لغوية مانعة من المعنى الأصلي أو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة وبالنقصان ليحترز بطلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه أو إسناد الشيء إلى ما ليس حقه أن يسند له في المجاز العقلي.

والمجاز العقلي هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من خلال المتكلم لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له، والمجاز العقلي إلى قسمين:

الأول: المجاز في الإسناد وهو إسناد الفعل أو في معنى الفعل إلى غير من هو له وهو على أقسام، إسناد إلى الزمان والمكان والسبب والمصدر وإسناد ما بني للفاعل إلى المفعول وما بني للمفعول إلى الفاعل.

الثاني: المجاز في النسبة غير الإسنادية وأشهرها النسبة بالإضافة .

[1] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص19-20.

[2] ينظر؛ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الرسالة، ط2، 1958م، ص13.

بل أن أبا عبيدة أطلق لفظ المجاز في كتابه القيم وأراد بها معناها الواسع الذي عرفه في كتابه من الوضع اللغوي وهو المعبر والطريق والزاوية والممر، فكان معنى مجاز القرآن الممر المعبد والممهد للوصول إلى فهم المعاني القرآنية[1].

إن أبا عبيدة من خلال كتابه "مجاز القرآن" قد خدم البيان العربي كون هذا الكتاب يعتبر باكورة هذا الفن، حيث عالج فيه كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية باحتذاء أساليب العرب في الكلام عن طريق الاستشهاد بالشعر العربي و نثره بالاستعانة في طرقهم ووسائلهم في الإبانة عن المعاني الواردة في آيات الذكر الحكيم.

والسلف السابق من العرب والمسلمين يحتاجون إلى جهد أو قواعد أو طرق في سبيل إدراك معاني الآيات وفهمها لأنهم كانوا عربا في السليقة، وكان لسانهم عربيا و الفصاحة طبعا فيهم ، ولدوا عليه وألفوه في لسانهم لأنهم وجدوا مثله في كلام العرب من وجوه البيان والفصاحة وقوة اللفظ لأن ما في دفتي المصحف من وجوه الإعراب و الغريب والمعاني والبديع والبيان فكانوا يعرفون فصاحته، بل عبر أحد طغاتهم وهو الوليد بن المغيرة عم سمعه من آيات بأن له حلاوة وعليه حلاوة وأولهم مغدق وآخرهم موجب، ولهذا فاض قريحة أبو عبيدة بمأثور القول من أشعار العرب ومنثورهم للتوصيل بهذا التراكم الكمي من المنثور والمنظوم إلى تفهم المعاني القرآنية[2] .

كما قيل بأن مفهوم المجاز عند أبا عبيدة كان مفهوما عاما ، لم يتمحض للدلالة على المفهوم اللغوي وتحددت به مدلولات متعددة في نفس النص[3].

[1] ينظر؛ بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية ، ص19.

[2] ينظر؛ المرجع نفسه، ص17.

[3] ينظر؛ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص40.

ت– بشر بن معتمر(ت 210هـ).

بالإضافة إلى أبي عبيدة فإن أول معتزليه خطا خطوة كبيرة في البلاغة العربية هو رئيس المعتزلة بشر بن المعتمر 215هـ ، حيث أن الجاحظ قد نقل عنه عدة صفحات نثر فيها بشر ملاحظات دقيقة عن علم البلاغة وقد استعانوا بها العلماء الذين جاؤوا بعده في بلورة بعض أصول البلاغة وقواعدها[1].

وقد كان بشر بم معتمر يعد خطيبا بارعا باحثا في أسس الفن الخطابي وصحيفته تعد أول وثيقة نقذقية بلاغية كدونة، وكانت هذه الصحيفة ذا أهمية كبيرة وهذه الأهمية ترجع إلى ما اشتملت عليه من آراء بلاغية ونقذية كما لا نهمل ايضا القيمة التاريخية التي تحتويها.[2]

ولا نكاد نتقدم بعد الربع الأول من القرن الثالث هجري حتى يتجرد لنا معتزلي كبير وهو الجاحظ وشمر عن ساعديه للغة وسطر ملاحظات العرب البيانية و أساليبهم اللفظية ، فالثالث هجري كان حافلا بسيد البيان العربي وأديبها المعتزلي المتوفى سنة 255 هـ ألف كتابه "البيان والتبيين" في أربع مجلدات كبار جمع فيه ملاحظات العرب البيانية وأساليبهم اللفظية وملاحظات الأجانب من الثقافات الأخرى وسجل كثيرا من ملاحظات معاصريه وأدباء عصره وشيوخه وخاصة أهل الاعتزال، وتراه أطال الوقوف عندما أثاره بشير بن المعتمر من صفات الألفاظ والمعاني ووجوب مطابقة الكلام لسامعيه من ذلك قوله بالمطابقة اللفظية وتفاوت الكلام بتفاوت من يلقي إليهم.

وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا وسوقيا بعيدا عن الذوق واللغة فكذلك لا ينبغي ان يكون غريبا وحشيا غليظا تستفز منه الأسماع وتشمئز منه الآذان إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس[3].

[1] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان في البلاغة العربية، ص 10.

[2] ينظر؛ محمد أبو شوارب، أحمد محمود المصري: المدخل لدراسة البلاغة العربية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2007، ص7.

[3] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص46.

3- البيان عند الجاحظ(ت 255هـ):

يعد الجاحظ مرحلة مهمة وحاسمة في تاريخ البلاغة العربية، وقد اهتم بالعديد من القضايا اللغوية والبلاغة، ومن أهم تلك القضايا التي تطرق إليها قضية " البيان"، ومفهومه غير مستقر على معنى واحد بل يتعدد بتعدد السياقات حيث ارتبط مفهوم البيان بوظيفة التعبير ومدى إمكانية إفهام السامع[1]، مستدلا على ذلك بقوله: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر هو الغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[2].

يتبين لنا من خلال هذا النص أن الجاحظ اهتم بوظيفة الفهم والإفهام والإفصاح عن المعاني وهذا لا يعد أن يكون تأكيدا لما جاء عن البيان، لكن ما تجدر الإشارة إليه هو اسم "البيان" مرهون بتمكن المعنى من نفس السامع، فمهما اختلفت الطرق والوسائل المؤدية إليه ووجود عبارة " بأي شيء بلغت الإفهام تدل على تعدد الأساليب نقل المعنى من نفس المتكلم إلى قلب السامع، ومن هنا نجد دلالة البيان هي حصول الفهم والإفهام، ويبقى غاية معلقة إلى حين حصولها.

إن البيان عند الجاحظ يرتبط بالعلامة اللغوية والتي تبرز حاجاته والتعبير عن ما بداخله، مما توظف فيه هذه العلامة اللغوية لغرض فني يسعى من خلاله إلى خصائص نوعية تساوي بين الاستعمال السائر إلى استعمال أدبي تتوفر فيه شروط البلاغة وكذا الفصاحة، فالبيان عند الجاحظ يتدرج من " العلامية" مطلقا إلى العلامة اللغوية

[1] ينظر؛ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص157.
[2] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص11-12.

بمستوييها العادي والأدبي، ومن هذا نتطرق إلى إبراز هذه المعاني وما يؤسسها من نظريات وما يقوم بينها من علاقات[1].

أ- أنواع الدلالات على المعاني:

ينطوي المفهوم العام للبيان عند الجاحظ " على جملة من المنطلقات الفلسفية والعقائدية حددت، بدورها نظرية اللغوية العامة وأثرت تأثيرا عميقا في ضبط وظيفتها، ومبتدأ تفكيره في القضية يتأسس مع نظرية دينية رمزية تتنزل بموجبها المخلوقات منزلة الدوال لمدلول أسمى سرمدي يهتدي إليه بالتعقل وتأويل الرمز وهو حكمة العالم والكون"[2].

يتبنى من خلال هذا أن البيان كمصطلح له جملة من المنطلقات الفلسفية والعقائدية والتي تعمد إلى نظرية اللغوية عامة، كما أن معظم البراهين وإن اندمجت من جهة الدلالة فهي لا تتشابه من حيث الإدراك والتعقل والقدرة على الفهم والتأويل.

لذلك انقسمت إلى قسمين وهما: قسم عاقل وهو ذلك القسم الذي يستدل ويعبر أما القسم الثاني فهو قسم عكس الأول لا يدرك وليس له القدرة على الاستدلال لأن ملكاته قاصرة[3]، ولهذا شارك القسم الأول في الدلالة ونقص عنها بالاستدلال

ومن هنا نخلص إلى أن للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسمي ذلك بيانا، أي أن المستدل وإن نتج له ما يدل على الاستدلال فسمي بالبيان

[1] ينظر: حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص157.

[2] المرجع نفسه، ص158.

[3] ينظر: حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 158-159.

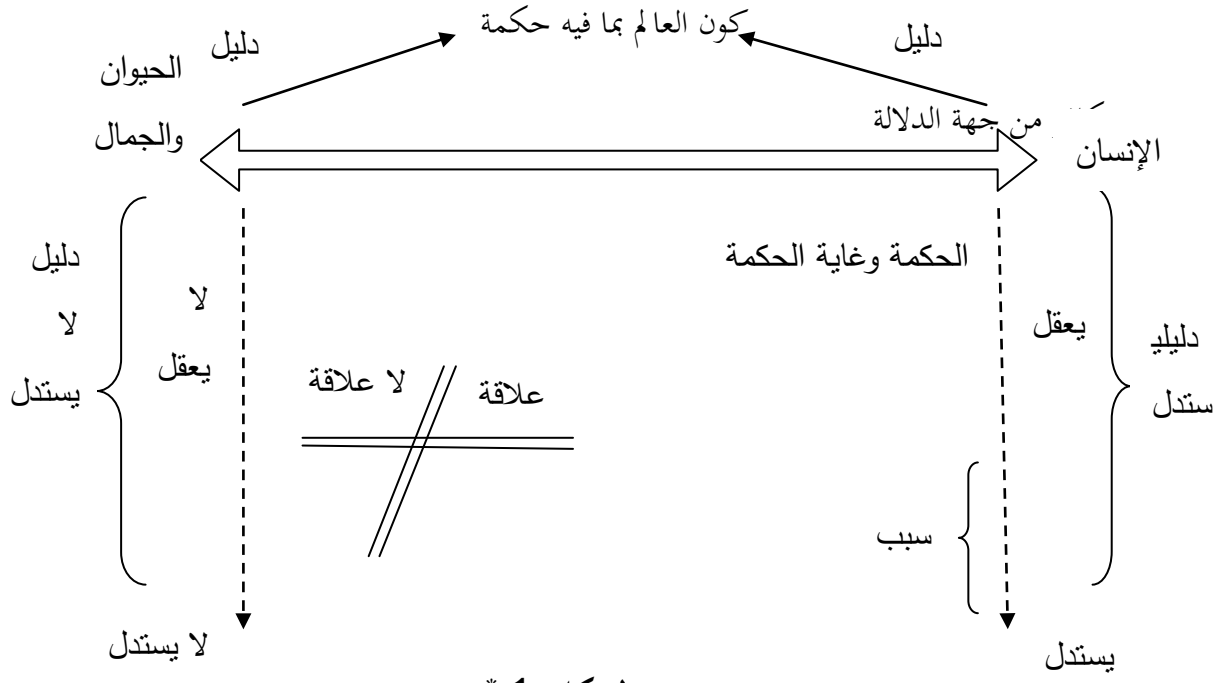

الشكل (1)*

كما أن البيان لابد له أن يتم بين «أجناس متشابهة بعلامات يفهمون بها بعضهم عن بعض ويرفعون بها عنهم مؤونة الجهد في استكناه المعاني الكامنة التي تبقي، ما لم تحط بها العلامة، مستعصية لا تتيسر إلا بخالص الجهد والمشقة، لأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المائلة والأجسام الجامدة والأجرام الساكنة، التي لا يعترف ما فيها من حقائق الحكمة وكنوز الآداب، وينابيع العلم إلا بالعقل الثاقب اللطيف». [1]

ومن هنا يتبين لنا أن البيان في المرحلة الأولى على عكس المرحلة الثانية التي لها أجناس متماثلة، فالبيان، باللغة بحاجة إلى تأدية أصناف المعاني، وإلى التوسل بوجوه البيان الأخرى هو ما يفسر الأهمية الكبرى التي تحتلها الإشارة.

إن النظر التام الناقد «وبالأداة الكاملة وبالأسباب الوافرة والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوى، ولأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن إليه وأصب به، وتترتب هذه –حسب

[1] حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 160.

* من الشكل، المرجع نفسه، ص58.

الجاحظ- تبعا لصلتها بالحواس فمنها ما هو للسامع كاللفظ ومنها ما هو للناظر كالإشارة ومنها ما يشترك في إدراكه حاستان كالعقد فهو للناظر والأسس...» [1]

يلاحظ من خلال هذا أن لكل واحد من السمع والنظر والإدراك ما يوضح الحاسة التي تتناسب مع معناه.

كما تترتب من ناحية ثانية «تبعا لما تملؤه من حيز مكاني وزماني وأقصاه مدى الطرف ومنتهي الصوت بالنسبة إلى اللفظ والصوت والإشارة، وأما ما نزح من الحاجات وغاب فالحاجة فيه إلى الكتاب تغدو ماسة إذ لا سبيل إلى التواصل والتفاهم بسواها وتقيد الجاحظ في فهمه للأدلة بالشكل والحواس جعله ينزل دلالة الحال دون منزلة الأنواع الأخرى، ولولا هذا القيد لأمكنه الوصول في علم العلامات إلى حدود لا نستطيع التكهن بمداها» [2]

أي أنّ الكلام الذي تحدثنا عليه في هذا النص يؤكد لنا أحوال لدلالات على المعاني، إلا أنها لما لم تضبط في مدى ملموس ولم تلتبس بشكل معلوم فقد اكتفى بالقول أنها ناطقة من جهة الدلالة.

إن البيان بهذا المفهوم العام، قد أتى عليه المؤلف بقوله: «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان ليس رهينة جنس الدليل ونوع العلامة، والمهم هو الانتقال بالمعنى من حال الاختزان والبرهان الصامت إلى حال تفضي بالمستدل إلى حقيقتها وبتمثلها بفكرة، بأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان» [3]

يفهم من هنا أن البيان يوضح لنا بصورة الأكثر واقعية والأكثر تعبير عن المعنى الخفي من المعاني وليس لغة الكلام لوحدها حتما بل تمتد إلى وسائل أخرى أكثر تعبيرية ومن ثم يتضح المفهوم العام للبيان.

إن معنى البيان الذي يجعله فصاحة ولسانا، هو الذي قصد إليه الجاحظ «حينما ألف كتابه "البيان والتبيين" فقد بدأه بما يلاءم اسم كتابه وموضوع بحثه، وهذا يدل على أن معنى البيان عنده هو الاقتدار على

[1] ينظر؛ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 161.
[2] المرجع نفسه، ص 161.
[3] ينظر؛ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 161.

الكشف عما في النفس من غير فضول أو سلاطة أو هدر، ومن غير حبسة ولا عين، أي أنه الحد الأوسط المحمود بين الثرثرة التي لا جدوى منها، والإفحام الذي هو بمنزلة البكم، والبيان على هذا ملكة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده»[1]

يشير هذا المفهوم حول البيان وهو على حد قوله إخراج ما في النفوس والكشف قناعه والإفصاح عما في داخله من مكبوتات والابتعاد عن الكلام الذي لا جدوى منه.

عقد الجاحظ بابا سماه باب البيان أي أن له فائدة عظيمة تظهر من خلال ما ينتج من معارف وآفاق وبذور بلاغية وأدبية.

كما يبين لنا مدى أثر كتاب وقيمته ما يعمر على القارئ أو الباحث والإنصاف فيه، فهو ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقل عهده، عندما تطرق إلى عقد باب البيان بعد أكثر من سبعين صفحة من أوله، وكان في الحق –كما يقول الجاحظ نفسه– أن يكون في أول هذا الكتاب ولكنه أخرى لبعض التدبير، حيث أحصى طائفة من الأقوال تبين لنا معنى البيان وتبين أهميته:

1) البيان بصر والعىّ عمى، كما أن العلم بصر، والجهل عمى، والبيان من تاج العلم، والعىّ من تاج الجهل.

2) وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم.

3) وقال صاحب المنطق: حد الإنسان الحي الناطق المبين.

4) وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفالى، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان ».[2]

[1] بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربي، ص 45.

[2] بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص 52.

من خلال هذه الأقوال فهي توضح لنا أهمية البيان وأنه له أهمية كبيرة جعلت الجاحظ يشير إلى هذه الأقوال ليبين لنا قيمته البلاغية وكذا الأدبية.

والتي تبدو أنها تحتل مكانة هامة في تفكير الجاحظ ونظرته إلى البيان وإلا لما حصر كل أصناف الدلالات فيها بأنها لا تزيد عن ذلك القدر ولا تنقص، وهذا ما جعل الجاحظ يفسر كل قسم تفسيرا يشف عن قصد تعليمي، غير أن الطابع الرمزي أضفى على السياق لهجة صعبة المراس أحيانا، وشحن عباراته بمعان تتجاوز استعمالها المعهود، وبما أن نصوص الجاحظ تشير إلى أن هذه العلاقة تسمى بيانا فلابد من تسجيل ملاحظة هامة مفادها أن البيان علاقة بين الدليل والمتكلم أو بين الدال والمدلول بعبارة أدق من جهة وبين المتكلم من جهة أخرى وهذه العلاقة قام بدراستها الجاحظ من خلال أصناف الدلالات الخمس حيث عالجها في كتابه الحيوان وقام بذكرها في مواضيع كثيرة وخاصة في الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين حيث تطرقت إلى تفصيل وشرح كل صنف على حدى وهي كالتالي:

أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال والتي تسمى نصبة أيضا. وهي الحالة التي تقوم مقام تلك الأصناف. [1]

يرتبط مفهوم البيان في المرحلة الأولى " بغاية التعبير عن خفايا الحاجات والمعاني وهتك الحجاب دونها ليتم للناس مرادهم من اجتماعهم ويدركوا حكمة الخلق وما أودع الكون من جليل الحكمة، والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير"[2].

نلاحظ أن البيان لا بد له من الارتباط ببعض الغايات بيولوجية من أجل إدراك الناس الحكمة والخلق، كما أن البيان هنا هو الإيضاح كل ما هو خفي ومعرفة المعنى بشكل أدق وأعمق.

[1] ينظر؛ الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص57

[2] المرجع نفسه، ص159.

إن البيان عند الجاحظ يعرف على أنه « الاقتدار على الكشف كما في النفس من غير فضول أو سلاطة أو هذر ومن غير حبسه ولاعي، ومعنى هذا أنه الحد الأوسط»[1].

كما أن الجاحظ عندما تطرق إلى الحديث في البيان فقد قصد به في كتابه وأدار حوله مسائله أي القدرة على الإعانة والكشف كما في النفس والإفصاح كما في الضمير بطرق البيان والألفاظ من هذا نجده حدد معنى البيان من أجل الإظهار والكشف حتى يتبين المعنى[2].

يعد كتاب "البيان" عند الجاحظ قطب التأليف الأدبي والبلاغي ومعدن تفكيره، ويعتبر كتابه من أمهات الكتب وعيونها في التراث العربي لما فيه من معاني عميقة حملت في طياتها للواء الأعظم من بين الكتب التي سبق لنا وأن تطرقنا إليها، ولهذا نجد الجاحظ في كتابه على استقصاء سبل القول وتصاريف اللغة لإبانة سر صناعة الكلام[3].

إن الجاحظ هو أدرى إلى النظر في ملكة البيان وأسبق علماء العربية لما له من دلالة الألفاظ، تقوم على المعاني المجردة لا المعاني الحسية.

- شرح الأصناف الخمسة:

الصنف الأول: اللفظ

إن الجاحظ ذكر هذه الأصناف مباشرة ثم ينتقل إلى الإشارة أما اللفظ فقد سبق وتعرض له قد قلنا في الدلالة باللفظ، أي أن الباحث في أوصاف هذا الصنف من الدلالات يجب أن يتبع الملاحظات التي سبقت، لقد حث الجاحظ بعضا من الخصائص كقوله: أنه يستعمل للقريب الحاضر والشاهد الراهن، إن وسيلة اللفظ لا تظهر إلا من خلال الصوت فإن الجاحظ يطرق الموضوع في البيان والتبيين بإسهاب وبكيفية عملية، ولكنه لم يفعل ذلك كما سبق، إن اللفظ يحتل مكانة هامة عند الجاحظ ويمكن تصور هذه المكانة من خلال تركيزه أكثر من مرة

[1] بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص45.

[2] ينظر؛ فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ص122.

[3] ينظر؛ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص215.

على قضية حسن الصياغة وجودة السبك وانتقاء الألفاظ، وهي مسألة مهمة عند الجاحظ، فقد تطرق إليها في قضية اللفظ والمعنى، ولتبيين نظرة الجاحظ للفظ من خلال القاعدة المشهورة التي أكدها الجاحظ في البيان والتبيين والتي تقول أن الإنسان هو العالم الصغير سليل العالم الكبير، إن الجاحظ صرح أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة. [1]

الصنف الثاني: الإشارة

والإشارة هي ثاني صنف بعد اللفظ «وتكون باليد وبالرأس وبالعين والحاجب، إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا ويكون وعيدا وتحذيرا، وفي الإشارة بالطرف الحاجب وغيرهما من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس »[2]

من هنا نرى بأن الجاحظ كان إدراكه للإشارة بعيدا عن الوسائل التعبيرية التي أصبحت مبحثا مستقلا يدرس الحركة الجسمية في يومنا هذا فهو يرى بأن الإشارة واللفظ شريكان، وإنها نعم العون له ونعم الترجمان ويدل على تفطنه لطبيعة الإشارة ووظيفتها في التأدية الكلامية ويؤيد هذا الرأي تأكيده على أن الإشارة ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، ومهما يكن يمكن القول بأن هناك اختلافا جوهريا يبين باب الإشارة والتي هي أداة وعبارة عن حركة مختصرة كرفع السيف وتحريك الحواجب وبين اللفظ والخط التي تعتمد على الصوت وعلى الحبر.

[1] ينظر؛ الجاحظ: البيان والتبيين، ص 59.

[2] بدوي طبانة: دراسة فنية تاريخية في أصول البلاغة العربية، ص 55.

الصنف الثالث: الخط

وهو ثالث الصناف حيث ذكر الله سبحانه وتعالى: «فضيلة الخط والإنمام بمنافع الكتاب فمن ذلك قوله لنبيه عليه السلام:﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ سورة العلق آية [3-5]، وأقسم به في كتابه المنزل: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾ سورة القلم، آية [1]، ولذلك قالوا: القلم أحسن اللسانين. والعلم أبقي أثرا واللسان أكثر...» [1]

يلاحظ بأن الخط هو عبارة عن التعبير عن المعاني بواسطة الحروف المكتوبة فهو يختلف عن التعبير باللفظ كون اللفظ يعتمد على الصوت أما الخط فيعتمد على الحبر. هذا هو الخط الذي يعتبر أداة للتعبير في النظام الخماسي لكن هناك نوع آخر من الخطوط هو الذي أشارت إليه آيات القرآن الكثيرة، إنه الكتاب المنزل واللوح المحفوظ الذي تسجل فيه أعمال الناس من خير وشر، كما ورد الخط بمعنى الكتاب المنزل وهو ما جعل الخط يدل على الوحي في التعبير الجاحظ.

الصنف الرابع: العقد

وهو ضرب «من الحساب يكون بأصابع اليدين ويقال له حساب اليد، وهذا الصنف الرابع» [2]

هذا معناه أن اليد هي وسيلة الحساب بالعقد، لعل ما يزيدها هذا تأكيدا وضوحا، تداول عبارة "عقد الأصابع" لدى بعض القدماء ودورها في كتبهم، أي الذين يقصدون بها الحساب الذي يتم بواسطة اليدين.

وقد قام أبو عثمان بتحديد ثلاث وسائل للعقد أي أن العقد حساب يتم بغير لفظ وخط والعقد وهي الآتي:

[1] طبانة: دراسة فنية تاريخية في أصول البلاغة العربية، ص 55.

[2] المرجع نفسه، ص 55.

– **الوسيلة الأولى**: وهي غير خارجة عن لغة الكلام وهذا يعني أننا نعتمد فيها الحساب وإظهاره على المادة الصوتية، من خلال العد بالصوت. [1]

– **الوسيلة الثانية**: وهي التي يتم بها عمليات الحساب في التعامل بين الناس في شؤونهم التجارية والاقتصادية وهي الخط والكتابة أي التدوين. [2]

أما **الوسيلة الثالثة والأخيرة**: فهي الحساب باليد أو الأصابع التي يتم بها العمليات المختلفة وهذا ما يؤكده الجاحظ من خلال عبارة ذكرها في معرض حديثه عن منافع اليد قائلا: "...ثم حظها في العقد..."[3]

ومن هنا نرى أن الوسيلة الثالثة من العقد تثبت لنا عبارة عقد الأصابع وتزيدها وضوحا.

الصنف الخامس: النّصبة

وهي تلك الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، في كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم ظاغن، وزائد وناقص والدلالة التي هي في الموات الجامد، كالدلالة التي هي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة والعجماء معربة من جهة البرهان، ولذلك قال الأول: سل الأرض فقل من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجني ثمارك فإن لم تجبك جوارا، أجابتك اعتبارا» [4]

ومعنى هذا أن الجماد والموت والسكون والطبيعة والكون تعبر عن نفسها بإشارة من جنسها وهي الحال الدالة أو النصبة المتكلمة في صمت.

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ص 80.
[2] المرجع نفسه، ص 80.
[3] المرجع نفسه، ص 49.
[4] بدوي طبانة: دراسة فنية تاريخية في أصول البلاغة العربية، ص 55.

يرى الجاحظ بأن صنف النصبة، دون الأربعة الأخرى أي أنه لا وجود لواسطة بين المستدل ودلالته. [1]

لقد تحدث الجاحظ عن الوسائل التي تبين عن المعنى وجعل وسائل البيان خمسة والتي هي كالآتي:

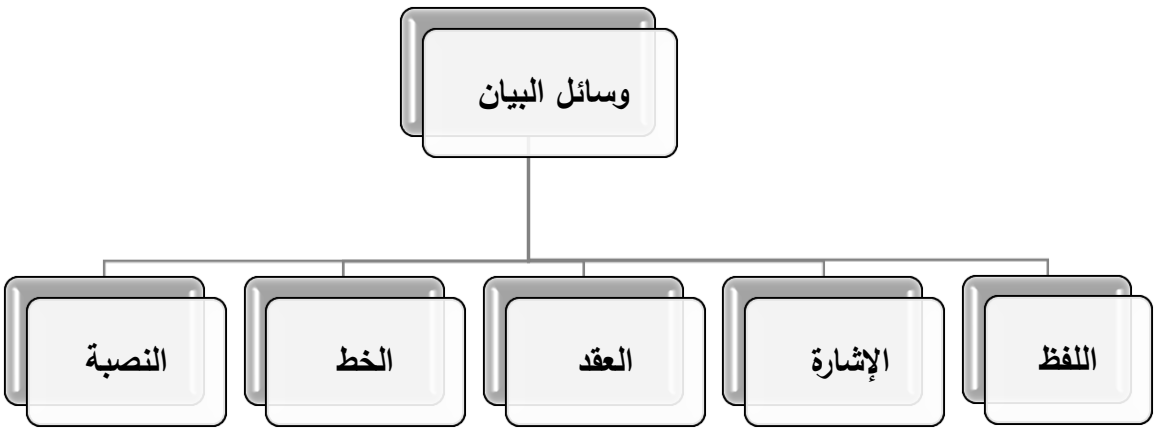

الشكل (02)*

إن الجاحظ عندما حدد هذه الوسائل الخمسة جعل مع كل واحدة منها دلالة خاصة بها،كما جعل لكل وسيلة حدا يخالف الآخر.

يرى الجاحظ أن البيان عبارة عن وسيلة للتوصيل ولا يستطيع المرء بدونه أن يقنع المستمع ويفهمه، ولهذا لا يستطيع المتكلم إفهام المتلقي غايته إلا بطريقة تجعله يلفت الانتباه إليه أي بأسلوب راق وسام حتى يقنع الآخرين ويفهمون المقصود منه[2].

وفي ذلك يقول الجاحظ: "ثم اعلم –حفظك الله- أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"[3].

[1] ينظر: حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 160.

[2] ينظر: محمد أبو شوارب: أحمد محمود المصري، المدخل لدراسة البلاغة العربية، ص19.

[3] المرجع نفسه، ص19.

* من الشكل، حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص160.

فالجاحظ هنا يبين لنا حكم المعاني على خلاف الألفاظ ويبرر لنا من خلال قوله هذا كيف هي معانيه، ولهذا جمع الجاحظ أصناف دلالات على المعاني في خمسة أشياء لكي يبين لنا صورة كل واحدة وليكشف حقيقة كل منها في التفسير عن أجناسها وأقدارها.

وفي موضع آخر يرى الجاحظ أن إصابة المقدار هو المعيار الحقيقي للحكم على الأعمال الأدبية أي أن يعرف المتكلم بأن الناس في تفاوت بينهم سواء كانت في طبقاتهم أو في تخير أسلوب هذه طبقات لأن الإنسان يمر بحالات مختلفة، أي أن ما يجد ربه الإشارة هو أن إصابة المقدار هو عبارة عن مذهب فني وجده الجاحظ من أجل التدليل عليه وتنظيره.

ب/ من العلامة مطلقا إلى العلامة اللغوية عند الجاحظ:

هناك مفهوما آخر غير المفهوم الأول فهذا يقترن فيه البيان باللسان الذي هو الأداة اللغة واللغة أداة للتواصل، بين المجتمعات وكذا الأهم، فالجاحظ يتفحص كل ما يتعلق بالبيان اللغوي ويقوم بالكشف عن جميع قدرات اللغة سواء كانت عن قرب أم عن بعد، كما نسلم اليوم على أن اللغة أكثر وسيلة يعبر بها الإنسان.[1]

لقد أعطى لنا هذا المصطلح مراحله كما يأتي:

1- ففي المرحلة الأولى يقترن فيها البيان باللغة أي أن اللغة لها مكانة خاصة لما تقدمه للإنسان فهي أكثرها تعبيرا عن حاجاته، وهذا ما زادها قوة ومنزلة ضرورية وحدا مميزا عن سائر المخلوقات. [2]

2- أما المرحلة الثانية وتوضح على مدى قدرة الإنسان على توظيف اللغة من الناحية الاجتماعية قصد الاندماج مع الجماعة وتحقيق التواصل ومن هنا ندرك المعنى العام، أي أن لفظة بيان بصورته الأكثر واقعة والأكثر

[1] ينظر؛ محمد أبو شوارب: أحمد محمود المصري، المدخل لدراسة البلاغة العربية، ص 162.
[2] ينظر؛ المرجع نفسه، ص 163.

تعبيرا عن المعنى من المعاني وليست هي لغة الكلام حتما بل يمكن أن تمتد إلى وسائل تعبيرية أخرى وهذا هو البيان من الوجهة العامة.

ومن أبرز الأدلة التي تدل على أن البيان هو الوضوح والإبانة والكشف عما في الضمير، اعتماد المؤلف للإحاطة بخصائصه على نقيضه "العىّ"، فبرز في مؤلفاته ثنائي تقابلي تتفاعل أطرافه تفاعلا جدليا خصبا مما مكن المؤلف من إمكانيتين في تحديد الظاهرة: الطريقة المباشرة الإيجابية والطريقة غير المباشرة السلبية فقد جاء معنى مواز لجملة المعاني المتناقض بالبيان:[1]

البيان	العىّ
- تمييز وسياسة وترتيب ورياضة (3)	- عجز (3)
- علم (4)	- جهل (4)
- بصر (5)	- عمى (5)
- أقدار الألفاظ على أقدار المعاني (6)	- إطناب وإكثار وتقصير عن المقدار
- رباطة جأش ومسك النفس (1)	- خجل وانبهار
- تحكم في مصادر الكلام وموارده	- خلط واضطراب
- فضيلة ومزية	- نقص في المروءة

الجدول رقم (01)

لقد وضح لنا هذا الجدول المعاني التي يجري عليها العىّ أي يكون معنى مواز ومناقض متعلق بالبيان، أي كل كلمة وما يقابلها مثلا: في البيان نجد معنى علم أما في العىّ نجد معنى الجهل فهما في تناقض.

[1] حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص165.
*الجدول، المرجع نفسه، ص165-166.

3- مرحلة ثالثة فكلمة بيان هنا أتت في "جوار لغوي ذو طابع معياري تقييمي تصبح بمقتضاه وظيفة البيان في حاجة إلى مستوى لغوي تتوفر فيه خصائص نوعية تخرجه عن جاري الاستعمال إلى البلاغة والفن. ومن كون موضوع حديثا في الغالب نصا اعتبر المثل الأعلى في التعبير"[1].

ونعني من خلال هذا الجدول الحديث عن خصائص مبلغة البيانية.

المرحلة الرابعة فينفرد مفهوم البيان عن "معناه العام وعن لغة المجردة من قصد فني إذ تنحصر وظيفتها في مجرد الإبلاغ، ليصبح صنعو -البلاغة والفصاحة- متعلقا ببعدها الإنشائي حيث توظف توظيفا أدبيا جماليا فيكتسب الخطاب لفظه ومعناه وبنيته خصائص نوعية يتحول بمقتضاها من مرتبة الوسائل إلى مرتبة الوسائل والغايات معا فيجلب انتباه متلقيه بذاته ولذاته"[2].

أما في هذه المرحلة فالبيان يلعب دورا بارزا فينقل من المعنى عام إلى قصد فني ثم يتحول بعد ذلك إلى عبارة عن وسائل وغايات.

ونجد البيان في موضع آخر كما ذكره الجاحظ "بأنه يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن وغير ذلك، وهو بذلك واسع المعنى يشمل أمورا كثيرة ولا يختص بشيء معين كما اختص به عند المتأخرين وهكذا ظل البيان يعني أمور كثيرة ويطلق على البلاغة طوال العصور"[3].

وقد بين لنا الجاحظ البيان عنده بأنه تلك الوسيلة أو الغاية التي تملك أحكاما شاملة وكثيرة في مؤلفاته الكثيرة.

---

[1] ينظر؛ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص166.

[2] المرجع نفسه، ص167.

[3] د.أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، مكتبة منشورات النهضة، بغداد، ط1، 1964، ص309.

ج/ البلاغة عند الجاحظ:

لقد أولى الجاحظ اهتماما كبيرا في سبيل تأسيس علم البلاغة وهو أول معتزلي تطرق إلى دراسة الجهد البلاغي والاهتمام به اهتماما كبيرا، فالبلاغة كجنس قد تدعيها الأمم كما يدعيها بعض الأشخاص كموالى البكرات هذا الذي كان يدعي البلاغة ويتصفح كلام الناس، ولأن مذهب الجاحظ ذو مذهب تعليمي يسعى إلى نشر البلاغة وتعليمها عند الخاصة والعامة وإلى حث المسلمين خاصة على تعاطيها والإقبال عليها[1].

عند الأمم:

وردت كلمة البلاغة في كتاب الجاحظ في عدة تعريفات والتي وجدها الفرس والهنود واليونان والعرب حيث نجد "الفارسي عرفها بأنها معرفة الفصل من الوصل، أما الهندي فقال بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة، واليوناني قال بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام، أما الأعرابي فقال بأنها شيء تجيش به صدورنا فنقدفه على ألسنتنا، وعرفها أيضا في موضع آخر ابن الأعرابي بأنها الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل"[2].

يتبين لنا من هذه التعاريف أن كل واحد من هؤلاء قد قدم تعريفا مخالفا للآخر حول البلاغة، فيوجد من قال بأنها عبارة عن الفصل والوصل، ومنه من قال بأنها عبارة عن الوضوح أي الإبانة والظهور وهناك من يرى أنها أقسام واختيار للكلام فهذه هي البلاغة عند الأمم.

[1] ينظر؛ محمد صغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1994، ص241.

[2] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، ص88.

عند الرومي:

وهي"حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة"[1].

عند العتابي:

كما قال العتابي عن البلاغة بأنها "كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق"[2].

ومعنى هذا القول أنه تحدث عن مقاطع كلامه مثل اسمع مني أو افهم عني فهذا كله عيّ وفساد.

وفي موضع آخر قال عمرو بي عبيد بأن البلاغة هي "ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك، كما قال عمرو في كلام آخر بأنها تخير اللفظ، في حسن الإفهام"[3].

البلاغة في هذا الموضع هي العدل في الحكم ما بين الجنة والنار وهذا هو الشيء البليغ في قول عمرو بن عبيد، أما قول عمرو نلاحظ أنه فضل اللفظ من أجل الإفهام.

وفي موضع آخر نرى بأن البلاغة في عصر الجاحظ عبارة عن ثلاثة أقسام وهي (البيان والمعاني والبديع)

وهي مصطلحات مجهولة ولم تكن مستخدمة، لكن الجاحظ يعرض مسائل دون ذكر نوعها البلاغي، وهو لا يقوم بإبرازها عرضا علميا كما هي، إننا عندما نطلع على محتويات بعض كتب الجاحظ مثل كتاب البيان والتبيين لا

[1] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق د.درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 2003، ص63.
[2] الجاحظ: البيان والتبيين ، ص 112.
[3] الجاحظ: البيان والتبيين، ص112.

نجد أثرا للمسائل البيانية والبديعية والتي اصطلح عليها البلاغيون الذين أتوا بعد الجاحظ أمثال: ابن المعتز وقدامة والعسكري وابن سنان وابن الأثير وغيرهم[1].

وكما قال بعضهم عن البلاغة "-وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه- لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[2].

ومما سبق ذكره نلحظ حول البلاغة أن المعنى الاصطلاحي الذي حدده البلاغيون لم يشر إليه الجاحظ فهو لا يضع حدا فاصلا بين كل من الفصاحة والبلاغة وهما عنده البيان بمعناه الواسع ، كما أن البلاغة تشمل المعنى واللفظ معا.

- البلاغة عند ابن المقفع(106-142 هـ):

يعرف إسحاق بن حسان بن قوهي البلاغة بأنها: " اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنه ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة"[3].

ومن هنا يتضح أن للبلاغة عدة معاني تختلف من معنى إلى آخر وكلها تؤدي إلى البلاغة، رغم اختلاف في أساسها.

كما عرف الجاحظ البلاغة بقوله: "إن البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرص وحسن الإشارة"[4].

[1] ينظر: عمر عبد الهادي عتيق: علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2012، ص20.
[2] الجاحظ: البيان والتبيين، ص113.
[3] الجاحظ: البيان والتبيين، ص114.
[4] المرجع نفسه، ص88.

ومعنى هذا أن البلاغة عند الجاحظ عبارة عن دلالة واضحة وحسنة الإشارة.

– بلاغة ثمامة بن أشرس (ت 225هـ): لقد وصف ثمامة بن أشرس لجعفر بن يحي، كان ثماثة قد انتظمها لنفسه واستولى عليها دون جميع أهل عصره، "وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج من السلامة من التكلف ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته ومعناه في طبقه لفظه ولم يكن إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك"[1].

تكمن بلاغة ثمامة بن أشرس هنا عندما وصف لجعفر بن يحي بلاغته في حسن الإفهام رغم وجود حروف قليلة وزيادة في ذلك وضوح ألفاظه وسلامتها.

وأيضا يقول بعض الكتاب "معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظها الواضحة في مخارج كلامه"[2].

وهذا يبين من خلال قول الكتّاب على ثمامة من خلال معانيه التي لاحظها الكتاب وتظهر جلية في مخارج كلامه.

جعفر بن يحي:

وفي موضع آخر أبرز لنا جعفر بن يحي من خلال قول ثمامة أن بلاغته واضحة في "نطق الناس والهدوء وسلاسة كلامه وحلاوتها وجزالة ألفاظها ما زاده إفهاما فهو لا يستغني عن الإشارة مثلما يستغني عن الإعادة، كما قال أيضا أنه زجل دون رجال فهو لا يتمتم في كلامه ولا يتنحنح ولا يتوقف ولا يتحبّس ولا يرتقب اللفظ وهو أشد اقتدار ولا أقل تكلفا من جعفر"[3].

[1] الجاحظ (عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، ص86.
[2] المرجع نفسه، ص86.
[3] الجاحظ: البيان والتبيين، ص83.

من خلال وصف بلاغة جعفر بن يحي للبلاغة نرى بأنه له بلاغة في غاية رقي من خلال سلاسة ألفاظه وجزالتها وعذوبتها فعندما يتكلم لا توجد في كلماته تقاطع للكلمات أو تمتمة للكلام أو خطأ في الحروف فهو يقرأ من بدون توقف أو ارتياح وهذا ما زاده بلاغة وقوة.

- السجع:

يعد السجع أحد المحسنات البديعية عند الجاحظ حيث أطلق البلاغيون عليه تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، أي أن الحروف تكون واحدة في لفظها وليس في معناها، إذ إن الجاحظ عمد بدوره إلى هذا اللون من المحسنات البديعية بدافع من الحب للأنغام الصوتية التي تحدث صدى جميلا من خلال الإيقاع الصوتي وكذا تأثره لأصوات الكلام هو ما زاده احتفاء بهذا اللون[1].

وخير مثال على ذلك قول أيوب بن القرية وقد كان دعيّ لكلام فاحتبس القول عليه فقال: "قد طال السمر وسقط القمر، واشتد المطر، فماذا ينتظر"[2].

ومن هنا يتبين لنا السجع وما جاء عليه من موسيقى أطربت الأذن من خلال هذه الكلمات.

وأيضا قول عبد القيس: "طال الأرق، وسقط الشفق، وكثر اللثق فلينطق من نطق"[3].

أي أنه انتظر طويلا ولم يفك أسره بعد ولهذا اشتد تعبه ولم يعد يحتمل أكثر من ذلك، إن قول عبد القيس هذا فيه لون من السجع لأنه أواخر الحروف قد أتت على حد واحد وهو حرف القاف.

كما قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ لا يكلم السيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك

[1] ينظر؛ فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص245.
[2] الجاحظ: البيان والتبيين، ص180.
[3] المرجع نفسه، ص180.

بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفها كل التصفية...وعلى وجه الاستطراف والتطرف"[1].

ويفهم من هذا الكلام أن البلاغة تعرف تغيرا الألفاظ ولا يمكننا أن نتكلم بكلام غير موزون يجب التدقيق ومراعاة عبارات التلفظ، وأن نحسن الكلام حتى يكون بليغا وجوهريا لا ساقطا سوقيا، ولا يمكن أن أتكلم مع زملائي مثلما أتكلم مع الأستاذ.

– التشبيه:

ونجد التشبيه عند الجاحظ مذكورا كثيرا في كتابه البيان والتبيين حيث أقام موازنة بين قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الناس كلهم سواسية كأسنان المشط".

وقول الشاعر: سواء كأسنان الحمار فلا ترى لدى شبه منهم على ناشئ فضلا [2].

كما أن التشبيه الذي حصل بين كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الشاعر هو معرفة حقيقة ما بين الكلامين، كما أن الجاحظ لم يخص التعريف أو مفهوم وإنما اكتفى بمثال له سواء شعرا كان أو نثرا.

فالعتابي يعني أن كلام العرب الفصحاء وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل فمدلوله كان عاقلا لا تبدو فيه الخالصية الجمالية كما عنى الجاحظ بإبرازها[3].

إن الجاحظ لم يبين الأصل الأول للبلاغة "بأنه الإيجاز والحذف ما فضل من الكلام، وإنما أثر عليه المساواة أو تفضيل الألفاظ على الأقدار وذلك انسجاما مع الفلسفة الوسطية التي نادى بها"[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص71.

[2] الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص19.

[3] السيد جعفر السيد باقر الحسيني: أساليب البيان في القرآن، مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ط1، د ت، ص119.

[4] المرجع نفسه، ص120.

يتضح لنا من كلامه هذا أن كل شيء جاوز المقدار ووقع اسم العيّ على كل شيء قصر عن المقدار فالعيّ مذموم والخطل مذموم ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي.

أما الأصل الثاني الذي تبنى للبلاغة "هو الطبع ومجانبة التكلف والصنعة، وأيده بقوة لأنه يتفق مع فلسفته الطبعية إذ يعتبر الأدب وليس الطبع وليس صناعة متكلفة"[1]. وهذا معناه أن البلاغة تقوم على الفلسفة الطبيعية وليس على التكلف والصنعة.

لقد أعطى الجاحظ اهتماما كبيرا لكل من البيان والخطابة بدل من البلاغة حيث جعل كل من البليغ والشاعر وحصرهما في أن البليغ هو صاحب الكلام المنثور أما الشاعر صاحب الكلام الموزون[2].

حيث قال الجاحظ: "ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض صاحب كلام منثور وكل شاعر صاحب كلام موزون".

ويقصد من قوله أن كل إنسان على هذه الأرض يمتلك كلاما منثورا على عكس الشاعر فهو لا يولد شاعرا إلا إذا كان متعلما لشعره وأن يكون له كلاما موزونا.

لقد تبلور مصطلح البلاغة عند الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" حيث كان استعمالها في معان تتمحور ستة من المضامين المبدئية العامة من غير فوارق أو جزئيات، وهي الاستعمال اللساني الصرفي والذي مفاده الحديث اللغوي.

أما المحور الثاني فهو ذو استعمال "فيزيولوجي فكري" والذي يتمثل في الانسجام الزمني للمفاهيم وكذا تصورات وحضور الكلمات عن طريق اللسان، ومصطلح البلاغة يتمحور في معنى الإقناع، كما أن استعمال عبارة البلاغة مقترن بخصائص فنية تأثر وتزدوج في مقتضيات ارتجال التعبير وهذا ما يزيد في حيز الدلالة العامة[3].

---

[1] السيد جعفر السيد باقر الحسيني: أساليب البيان في القرآن، ص120.

[2] ينظر؛ المرجع نفسه، ص120.

[3] ينظر؛ عبد السلام المسدي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، القاهرة، ط4، 1993، ص123.

أما المحور الخامس للدلالة عبارة البلاغة في سياق "البيان والتبيين" "فهو محور فني تطبيقي يدور إجمالا حول تضمن الكلام لخصائص تمييرية يتحول بها من مجرد إبلاغ رسالة لسانية إلى مادة من الخلق الفني نثرا كان أم شعرا"[1].

أي أن البلاغة تستعمل في بعض مواطنة بمعان أخرى تتمحور حول الكلام بما يحمله من رسالة فنية كانت نثرا أو شعرا لأن كلمة بلاغة استعملت بكثرة في كتابه البيان والتبيين لحسن معانيها ووضوحها.

وقد تستعمل عبارة البلاغة في "البيان والتبيين" في معاني غير المعاني التي سبق لنا وذكرناها فقد تستقل على الظاهرة اللغوية كما أن هذه المحاور محددة كما يلي وهي:[2]

الترقيم	المحاور المعنوية			التواتر	النسبة المئوية
	نوعية الدلالة	مضمونها	غايتها		
1	-لسانية عامة	عملية الكلام	البث	8	12,3
2	- فزيولوجية فكرية - منطقية لسانية	صفة الطلاقة	انسجام ركني للدلالة الإقناع	7	10,9
3	-لغوية نفسانية - أسلوبية	المحاجة	التأثير	4	6,2
4	- غير لسانية	الخطابة	الخلق الفني	9	14,0
5		الخصائص المميزة	تنويع الإدلاء	29	45,2
6		علم العلامات		7	10,9
				64	100

الجدول رقم (02).

[1] ينظر؛ عبد السلام المسدي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص124.

[2] المرجع نفسه، ص125.

*الجدول رقم 2، المرجع نفسه، ص126.

نستنتج من خلال ما سبق بأن مصطلح البلاغة عند الجاحظ استعمل أربعة مرات في كتاب "البيان والتبيين" ودار استعماله على معنيين اثنين: أحدهما لغوي معجمي لا يتعدى مجرد نقل الحديث أو الخبر (مرتان- 50 بالمائة) وثانيهما فني لساني يفيد عملية إيصال الرسالة اللغوية متقبلها مع ما يصحبها من مميزات نوعية تطبع بنيتها التعبيرية بطابع تركيبي وفني.

كما قيل أن الجاحظ قد خطا خطوة غير مسبوقة في ملاحظاته البلاغية، وذلك من خلال كلامه عن الاستعارة والتشبيه عن طريق مجموعة من النماذج، مع استعماله «المثل» مراد فللمجاز، كما جعله مقابلا للحقيقة.

وأن خير وأكثر من أفاد من ملاحظات الجاحظة البلاغية وطورها هو ضياء الدين بن الأثير وذلك يتبين من خلال كتابه الشهير المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر. [1]

وقد توسع الجاحظ كثيرا في حديثه عن الإطناب والإيجار ومواضيعهما، ومثال ذلك عند تكلم عن تكرار في القصص القرآنية ومواعظ الوعاظ.

فالجاحظ لم يقف بفكرة الإيجاز والأطناب عند صيغ الكلام، بل مد أطنابهما، فنظر من خلالهما في أساليب الكتاب والمترجمين، فهو يلاحظ أن لكل أديب أو شاعر أو ناثر معجمه اللغوي الخاص به الذي يردده في كلامه.

لقد أكثر في بيانه الحديث عن جزاله الألفاظ ورقتها وعذوبتها وفخامتها وسهولته وخفتها ، كما أكثر في حدثيه عما حسن الصّوغ وكما التركيب ورقة تأليف اللفظ وجمال نظمه وحسن بهائه. [2]

وقد تلقى اللغة من الإعراب والعلماء في البصرة وتلميذته على يد أساتذه الثقافة كان له أثره الكبير في ثقافة الجاحظ المتعددة الجوانب والألوان، وشخصية هي شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وثقافته وعقليته.

[1] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان في البلاغة العربية، ص 10-11.
[2] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 48-52.

والعجب من هذا كله هو كله هو أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة تأليفية جعلت الكثير ممن لا يفهمونه ويرونه كاتبا ليس له شخصية كونه نقل عن غيره وأثر الكثير من الشخصيات. [1]

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن ثقافة الجاحظ ثقافة واسعة ومتنوعة، وهو عالم من علماء الذين ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط بسائر ألوان الثقافات التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره، ويحيط أيضا باللغة وبيانها وآدابها.

ولاشك أن عصر الجاحظ، وعقليته وولعه بالدراسة وعكوفه على القراءة ونشأته بالبصرة قد أفادت أساتذة النظام في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ. [2]

ولا نبالغ إذا قلنا أن الجاحظ يعد مؤسس البلاغة العربية، فقد أفردها بالتعريف أول مرة في كتابه "البيان والتبيين" حيث حكى آراء العرب السابقين، والتمس بعض آراء الأجانب، ونشر في كتابه "الحيوان" تحليلات لبعض الصور البيانية. [3]

كما قال الأستاذ أحمد أمين: «إن المعتزلة كانوا أئمة البيان في الأمة العربية، وعلى رأسهم النظام والجاحظ وبشر بن المعتمر وثمامة، وأحمد بن أبي دؤاد، كل منهم أمام البيان في عصره، فقد تثقفوا ثقافة عربية واسعة، يعرفون أشعار العرب وأخبارهم وآدابهم ويعرفون المعاني العميقة التي هداهم إليها علم الكلام، فكانوا أدباء من نوع عميق لا يدانيهم فيه غيرهم، ومن ثم اخترعوا علم البلاغة». [4]

ومن هذا القول يتضح لنا تقدمهم في هذه الناحية هو السبب الذي أهلهم أن يكونوا من أول المؤسسين لعلم البيان والبلاغة.

---

[1] ينظر؛ الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص 150.

[2] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 57-58.

[3] المرجع نفسه، ص 58.

[4] أحمد أبو زيد: المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، 1986، ص 99.

الفصل الثاني:

امتدادات مفهوم البيان بعد الجاحظ

لقد جاء علم البيان متأثرا بالعلوم القرآنية والعلوم الأدبية والعلوم اللغوية، حيث اتصفت نشأته التبويب غير الدقيق في الفنون. [1]

ولقد كانت فكرة البيان للجاحظ مثيرا للكثير من علماء اللغة والأدب فأثاروا في مؤلفاتهم ودراستهم كل المسائل التي ترتبط وتتعلق بالأدب وتتناول البلاغة والبيان، وقد زخر النصف الآخر من القرن الثالث بالكثير من العلماء الذين أفضى إليهم علم الرواية، وثقفوا بالثقافة الضخمة الواسعة الأرجاء في هذا العصر.

وكتبوا الكثير من الكتب والتي كانت كلها تتحدث لنا عن البيان وتدرس الأدب وفنونه إلا أنها كانت مختلفة تماما فهي تختلف من مؤلف إلى آخر فكل على حسب عقليته وثقافته ومدى معرفته للموضوع، وان كان موضوع لا يجاوز البحث في الأدب والبيان.

أ– عبد الله ابن المعتز:

فكتاب البديع الذي ألفه عبد الله بن المعتز دراسة فنية لعناصر الجمال في الفن الأدبي، فقد جمع فيه محاسن الكلام، وكما قيل قد كان مدلول "البيان" عند الجاحظ مدلولا عاما كذلك مدلول "البديع" عند ابن المعتز عاما وهو لم يكن يعني من البديع أو يفهم منه ما قد فهم منه البلاغيون المتأخرون.

ولقد آلم ابن المعتز في بديعه ومحاسن الكلام عنده أصول "علم البيان" عند البلاغيين مثل الاستعارة والتي جعلها هي أول البديع، والكناية والتشبيه، والتعريض ولقد اشتمل البديع على مباحث كثيرة من علم المعاني كالاعتراض، والالتفات وبقية البديع ومحاسن الكلام عند ابن المعتز قد كانت هي أصول علم البديع عندهم كالمطابقة والتجنيس والمذهب الكلامي، ورد إعجاز الكلام على ما تقدمها إلى غير ذلك.

ولقد بدل ابن المعتز جهودا كبيرة في البحث عند الألوان البيانية وقد قام باستخلاص الشواهد والنماذج الكثيرة من ثنايا القصائد الطويلة والخطب والمقالات وكذلك من القرآن الكريم، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، مدفوعا إلى كل ذلك بعصبية لعروبته ومنكرا بأن تلك الصور البيانية من ابتكارهم وصنيعهم حسب ما ادعاه المحدثون. [2]

[1] ينظر؛ رحمن عزكان: مناهج النقد البلاغي قراءة وتطبيقات، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2016، ص 25.
[2] ينظر؛ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص 64-65.

فقد كان ابن المعتز شاعرا عظيما سهل الأسلوب يميل إلى الوصف والتشبيه وكان إلى الوصف والتشبيه وكان إلى جانب ذلك مؤلفات كثيرة من أهمها "طبقات الشعراء" وكتابه القيم والذي قد ذكرناه سابقا "البديع" الذي يوضح فيه أن البديع فن قديم يرجع إلى العصر الجاهلي. [1]

ب- قدامة ابن جعفر(ت 337هـ).

إضافة إلى ابن المعتز نجد أيضا قدامة بن جعفر 337هـ حيث اتسعت دائرة البحوث البيانية في القرن الرابع الهجري بالكثير من الأدباء أمثال قدامة بن جعفر البغدادي الذي وضع معالم وأصول لنقد الشعر وكان كل أصل منها يوضح ضوء ما وضعه للشعر من نعوت وكانت تلك النعوت أو أكثرها تكميلا لجهود ابن المعتز، مع انه لا نرى في بحثه أي إشارة إلى صنع ابن المعتز والى جهوده أو حتى إشارة صغيرة إلى الاقتداء به، والإفادة بما كتبه في البديع، واذا وجدنا بينهما تشابها واتفاقا على بعض محاسن الكلام أو الفنون البديعية كما يسميها قدامة ابن جعفر وهذه النعوت هي: الغلو والترصيع والتصريع، وصحة المقابلة، وصحة التقسيم، وصحة التفسير، والتكافؤ، والمبالغة، والتتميم، والالتفات، والمساواة، والأرداف، والإشارة، والترشيح، والمجانس، والتمثيل، والمطابق والايغال، فضلا عن كلامه في الاستعارة، وكلامه عن التشبيه.

فكل هذا يدخل في مجموعة البيان بمفهومه الواسع الذي لا يفرق بين لون ولون، ولا حتى يقسمها إلى مجموعات تحتويها تقسيمات المتأخرين إلى بيان ومعان وبديع.

فجهود قدامة البيانية لم تقتصر على هذا الذي فصله في نقد الشعر بل كانت له عدة جهودات وضعها في كتابين آخرين له وهما :كتاب "جواهر الألفاظ "وكتاب "الخراج وصناعة الكتابة" وكتاب "جواهر الألفاظ" يعتبر ويعد مصدرا نقديا مهما لقدامة كونه معجم من معاجم الألفاظ والتراكيب التي بدل المؤلف جهدا كبيرا وعظيما في إحصائها وجمعها ونظمها في أبواب على حسب ما تدل عليه من المعاني. [2]

[1] ينظر؛ مختار عطية: علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع، دراسة بلاغية، ص 20-21.

[2] ينظر؛ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص 75-76.

ج- الرماني(ت 386هـ):

وكذلك نجد الرماني 386هـ في كتاب "النكت في إعجاز القرآن" وقد تحدث فيه عند البلاغة، فألف رسالة حديثة عن البلاغة العربية، حيث ابتدأ بحديثه فيها عن ثلاث طبقات وهي: عليا ووسطى ودنيا، فالعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة.

وقد قال عن البلاغة أنها تنقسم إلى عشرة أقسام وهي: الإيجاز والتشبيه، والاستعارة، والتجانس، والفواصل، والتلاؤم، والمبالغة والتضمين، والتصريف، وحسن البيان وقد بدأ حديثه عن هذه الأقسام بالتعريف حيث عرف كل قسما من هذه الأقسام، وأول قسم قد وقف عليه عند تعريفه هو قسم الإيجاز، فقد عرفه الرماني بأنه "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى"

وبعد ذلك انتقل إلى التشبيه. [1]

ومن هذه الأقسام العشرة للبلاغة ما يعيننا منها هنا اثنان من أبواب «علم البيان» وهما التشبيه والاستعارة.

فكما قلنا عند انتقاله إلى التشبيه قد قسمه إلى حسي وعقلي، ثم فصل القول في العقلي منه تحصيلا أفاده منه فيما بعد القاهر الجرجاني في كتابه «أسرار البلاغة» [2]

وقد سمى الأول تشيديه حقيقة والثاني سماه تشبيه بلاغة.

وبعد بحثه الطويل والدقيق حول التشبيه انتقل الرماني إلى البحث عن الاستعارة وتوسع في الكلام عنها وفرق بينها وبين التشبيه وقد فضل الاستعارة وكل ما قاله عن الاستعارة استفاد منه عبد القاهر وغيره من البلاغيين إلى حد كبير.

بعد هذا تطرق إلى الحديث عن التلاؤم وعرفه واستعان بذلك على كلام الجاحظ في بيانه عن تنافر الحروف والكلمات.

كما تحدث أيضا عن فواصل الذكر الحكيم فوصفها بأنها، حروف متشاكلة في المعاني، كما فرق بين فواصل القرآن والأسجاع.

[1] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 104-107.

[2] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان، ص 13.

وترك الفواصل إلى التجانس وواضح من كلامه أن لم يعني ويقصد بالتجانس إلى كل صور الجناس، وقد سمى بعض صور الجناس الأخرى باسم التصريف، والمقصود بالتصريف عنده هو تصريف المعنى في الدلالات المتنوعة، وتحدث أيضا على المبالغة وذكر وجوهها وختم الرماني حديثه في البلاغة بقسمها العاشر والذي سماه البيان وهذا ما يهمنا عنده وقال أنه على أربعة أقسام كلام، وحال إشارة وعلامة وقد قسمه الجاحظ قبله، وقسم الرماني الكلام إلى قبيح وحسن والواضح من حديث الرماني عن البلاغة انه أضاف عدة إضافات جديدة إلى من سبقوه. [1]

د- الخطابي(ت 388هـ).

ومن الذين تأثروا بالجاحظ أيضا الخطابي 388هـ، حيث قسم إعجاز القرآن البلاغة تقسيما يختلف تماما عن تقسيم الرماني، إلا أنه لا يختلف معه في النتيجة، فمهما يتفقان في [2]أن بلاغة القرآن هي أعلى طبقة، فكما قلنا من قبل أن الرماني اعتبر بلاغة القرآن هي أعلى طبقة فكذلك نجد الخطابي في نظرته إلى بلاغة القرآن، وقد رأى الخطابي أن أجناس الكلام هي ثلاثة:

1- لبليغ الوصين الجزل.

2- الجائز الطلق الرسل.

3- الفصيح القريب السهل.

ومنه فإن بلاغة القرآن في نظر الخطابي قد ضمت وتشكلت على هذه الأنواع الثلاثة وهذا ما يؤكد لنا بأن كل ما يوجد في القرآن الكريم هو بليغ بلاغة أعلى درجات البلاغة.

وقد كان الخطابي من الذين اهتموا وبحثوا في "الإعجاز" حيث كان يعتبر من أسبق علماء المسلمين إلى البحث عنه.

[1] ينظر؛ عماد الراعوش: رسالة النكت في إعجاز القرآن، دراسة ونقد، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، د ط، د ت، ص 45-68.
[2] ينظر؛ المرجع نفسه، ص26.

وإذا أكثرنا في البحث وأطلنا النظر في "رسائل الإعجاز" لقلنا بأن الخطابي هو أول من نراه في هذا الميدان وهو الذي تطرق لهذا الأمر وواجه مسألة الإعجاز، وكانت مواجهته مواجهة مباشرة وبهذه المناسبة أي المواجهة التي قام بها الإعجاز خلف رسالة وقد سماها "بيان إعجاز القرآن"، والتي تقع حوالي أربعين صفحة.

وقد افتتح الخطابي رسالته بالكشف عن سبب اختلاف الناس في الرأي حول وجوه الإعجاز في القرآن، كونه أمر متعذر في واقعه أو في حقيقته لأنه ليس مما يواجه النظر وإنما يلمح لمحا أو يستشعر بالقلب، إذ هذا هو سبب الخلاف في إعجاز القرآن بين الناظرين[1].

هـ- أبي هلال العسكري (ت 395هـ).

يلاحظ أثر الجاحظ في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري 395هـ كتاب "البيان" وكتاب "البديع"، ولقد كان لهذين الكتابين الأثر البارز فيما كتب أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين الكتابة والشعر.

فأبو هلال العسكري يصرح أنه قد قرأ كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ واعترف أنه كتاب متعدد الفوائد جم المنافع، إلا أن الإبانة عن أقسام البيان وحدود البلاغة والفصاحة منتشرة في أثنائه، فلا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح المتكرر الكثير.

وهذا ما جعل أبو هلال يؤلف كتابه هذا متضمنا كل ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نظمه ونثره، ويستعمل في معقودة ومحلوله من غير تقصير وإسهاب، وقد سلك الجاحظ في الإبانة عن موضوع (البلاغة) في أصل اللغة ولفظها، وذكر حدودها ثم يعقد بابا في تمييز جيد الكلام من رديئه ومحموده من مذمومه، ثم ينتقل للتكلم عن صنعة البيان وعن حسن السبك، وحسن الإطناب، ثم ينتقل للحديث عن شرح البديع وحصر أبوابه وفنونه في خمسة وثلاثين فصلا.

[1] ينظر؛ عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسة السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، ط1 1974، ص179-182.

والواضح لنا أن أبا هلال العسكري لا يختلف عن ابن المعتز كثيرا إلا في تلك إضافات التي أضافها من الكلام غيره من الدارسين وبقد كان علم البلاغة في نظره أحق العلوم بالتعلم لأنه عندما قام بتأليف الكتاب في الصناعتين "الكتابة والشعر"، جعل أهداف البيان والبلاغة غرضا كلاميا وهو إثبات إعجاز القرآن، حيث بهذا العلم يعرف إعجاز كتاب الله الناطق بالحق[1].

كما نجد أن أبا هلال العسكري قد وضح في كتاب الصناعتين قيمة البيان في معرفة دلالات الفصول، فالبلاغة عند أبي هلال هي كل ما تبلغ به، لمعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه، فليس الشأن عنده في إيراد المعاني كون المعاني يعرفها جميع الناس[2].

كما لا ننسى بأن أبا هلال العسكري درس في كتاب الصناعتين دراسة دقيقة وهي مزيج لعلمه وعلم من سبقوه إليها، وكتابه هذا يشتمل على عشرة أبواب وهي:

-باب في تمييز الكلام الجيد من رديئه، وباب في الإبانة عن موضوع البلاغة وحدودها، وباب في البيان عن حسن النظم وجودة الوصف، وباب في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ، وباب في حسن الأخذ وحل المنظوم، وباب في ذكر الأسجاع والإزدواج، وباب في ذكر الإيجاز والإطناب، وكل باب من هذه البواب يندرج تحت فصول تتراوح من فصل إلى خمسة وثلاثين فصلا كما ذكرنا سابقا.

كما أن أبا هلال العسكري لم يخف تأثره بالجاحظ وإعجابه بكتاب "البيان والتبيين" وحتى اقتباسه منه.

والمتصفح لكتاب أبي هلال العسكري يلاحظ أن المؤلف قد جمع فيه كل مباحث علوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، وما يهمنا في كتاب الصناعتين هو علم البيان وما ورد فيه وطريقة المؤلف ومعالجتها لهذه الموضوعات: التشبيه والاستعارة والكناية.

[1] ينظر؛ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص77-78.

[2] ينظر؛ مختار عطية: علم البيان والبلاغة والتشبيه في المعلقات السبع دراسة بلاغية، ص21.

وقد تحدث أبو هلال العسكري عن التشبيه ووجوه التشبيه المختلفة، وأدوات التشبيه وعيوبه، كما تحدث أيضا عن الاستعارة والتي عقد لها فصلا كاملا، حيث تكلم فيه عن الاستعارة والمجاز والغرض من الاستعارة وغير ذلك.

وعد أيضا أبو هلال الكناية من بين فنون البديع، حيث وضع لها فصلا عرفها فيه وذكر أمثلة من الجيد والمعيب منها مع أنها تعتبر من مباحث علم البيان ولكن ليس مهما إلى أي علوم البلاغة قد نسبها.

وطريقة أبو هلال في دراسة الموضوعات البيانية ليست عالم البلاغة المتكلف بتفاصيلها بل هي طريقة من يخلط البلاغة بالأدب والنقد[1].

ويمكننا القول أن أبا هلال العسكري قد عالج البلاغة العربية بروح أدبية كما يمكن القول أيضا أنه تناول النقد بروح بلاغته، إضافة إلى هذا كله يمكننا القول بأن كتاب الصناعتين هو نقطة تحول في الدراسات البيانية والنقدية.

وقد جمع في كتابه الصناعتين كلام كل من ابن المعتز وقدامة بن جعفر، وبهذا يكون أبو هلال هو أول من كتب في علم البلاغة، وأول من بحث فيها بحثا واسعا.

والدافع من تأليفه هو خدمة القرآن الكريم وخدمة الأدب وبيان أسرار إعجاز القرآن، وقد كان أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين مبدعا ومجددا وجامعا لما كتب البلاغيون من قبله[2].

ومن الذين تأثروا بالجاحظ أيضا أبو بكر البقلاني 403هـ، وهو عالم من أعلام المؤلفين في إعجاز القرآن حيث ذكر في كتابه "أبواب البديع" التي شهدها النقد الأدبي في عصره، كما ذكر في آخر كتابه فصلا كاملا خصصه للحديث عن البلاغة ووصف وجوهها.

[1] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان، ص18-21.

[2] ينظر؛ أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، ص95.

وقد ذكر بعض أهل الأدب أن البلاغة تنقسم إلى عشرة أقسام وهي: التشبيه، التلاؤم، الإيجاز، الاستعارة، التجانس، الفواصل، التضمين، التصريف، حسن البيان، والمبالغة...

و- الباقلاني (ت 405هـ):

وقال الباقلاني عن القرآن أنه أعلى مراتب البيان، وأعلى منازله، ما جمع وجوه الحسن، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان[1].

وكما قلنا سابقا أن البقلاني عقد فصلا لبيان وجوه الإعجاز القرآني وقال كلاما عن الجاحظ، وقد تأثر في شطره الأول من هذا الكلام بالجاحظ، والذي ذهب فيها إلى أن مصدر الإعجاز في القرآن الكريم إلى نظمه هو أسلوبه وتأثر أيضا الشطر الثاني من نظريته بفكرة الرماني وهذه الفكرة هي أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة العربية، وحاول أيضا البقلاني الحديث عن نظم القرآن حيث قال: عن أنه مخالف للمألوف من كلام العرب وهذا قصد تفسير نظريته.

كما عقب فصلا أيضا تحدث فيه عن البديع، حيث افتتحه بالحديث عن الاستعارة، كما تحدث أيضا عن الطباق، وقال البقلاني عن وجوه الإبداع أنها كثيرة كونه لم يذكرها كلها بل ذكر البعض منها فقط.

وتحدث عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن، كما لا ننسى أن الباقلاني قد عقد فصلا بعنوان "وصف وجوه من البلاغة" وفيه لخص وجوهها العشرة التي ذكرها الرماني في رسالة النكت في إعجاز القرآن ولخص وجوه البلاغة عند الرماني.

[1] ينظر؛ الرماني والخطابي عبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، ط3، 1976، ص164-166.

والواضح من كلام الباقلاني في كتابه هذا أنه لم يزد في الشرح عما قاله الجاحظ من جمال النظم القرآني، كما أننا لا نخطأ إذا قلنا أن الرماني هو أول بلاغي هاجم بقوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق وصف ما فيه من وجوه البديع ووجوه البلاغة أيضا التي قام بإحصائها الرماني[1].

لـ- ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ):

وتأثر أيضا ابن سنان الخفاجي 466هـ بالجاحظ، والذي ألف كتاب "سر الفصاحة" وكان الغرض من تأليفه لهذا الكتاب هو محاولة معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب البلاغية والنقدية الجيدة لما امتاز به ابن سنان من إحساس وذوق أدبيين.

والملاحظ أن ابن سنان الخفاجي قد بدأ كتابه ببيان معنى الأصوات ومخارج الحروف، وهذا ما جعل ابن الأثير ينقده، واتخذ من هذه الإطالة سببا للهجوم والرد عليه.

ثم تكلم عن البلاغة ومختلف موضوعاتها كالاستعارة والإيجاز وغير ذلك.

والمتأمل لكتاب ابن سنان أنه أدخل الموضوعات التي اعتبرها المتأخرون من فنون البيان كالمجاز والاستعارة والتشبيه والكناية في فصاحة التأليف، وأنه بدأ بدراسة علم البلاغة من الجزئيات وهو بذلك خالف معاصريه عبدالقاهر الجرجاني[2].

ولقد سار الخفاجي بالبلاغة العربية والنقد الأدبي سيرا مزدوجا ولقد درس الأدب وبدأ دراسته في هذا

[1] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص108-114.

[2] ينظر؛ أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، ص97.

البحث في جزئيات هذا الأدب، فقبل أن يتحدث عن الصورة الكلية للأدب تحدث عن جزئيات هذه الصورة[1].

ولقد أراد ابن سنان الخفاجي أن يحدد البلاغة، حيث حاول أن يرسم معالمها، إلا أنه لم يأت بالكلمة الفاصلة لها، حيث أن البلاغة قد مرت بتعريفات كثيرة وقد قام الجاحظ بنقلها في كتابه البيان والتبيين وبع البلاغيين أيضا.

ولهذا السبب نجد أن ابن سنان الخفاجي لم يتطرق إلى تعريف البلاغة، وإنما قام بالتفريق بينها وبين الفصاحة حيث قال بأن البلاغة ما هي إلا وصفا للألفاظ مع المعاني بينما الفصاحة لا تتعدى الألفاظ فهي تقتصر عليها فقطن هذا هو الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان، حيث يلاحظ بأن الفصاحة أصبحت شطرا من البلاغة وأحد جزئيها، كما أنه أطلق الفصاحة على موضوعات البلاغة، ولهذا سمي كتابه بـ "سر الفصاحة" بمعنى أنها تشمل المعاني والألفاظ.

فابن سنان يلاحظ أنه حين ينتقل إلى تأليف الكلام يبقى مرتبطا ومتعلقا بالكلام عن الألفاظ، كون البلاغة توضح الألفاظ موضعها حقيقة أومجازا[2].

م- عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ):

وممن تأثروا بالجاحظ نجد: عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، والذي له عدة مؤلفات قيمة لكنه اشتهر أكثر بكتابه "أسرار البلاغة"، والذي وضع فيه نظرية علم البيان وكذلك كتابه "دلائل الإعجاز" الذي وضع فيه نظرية علم المعاني، ولهذا يعد واضع أسس البلاغة العربية والمشيد بأركانها، وقد دون في كتابيه "دلائل الإعجاز"

[1] ينظر؛ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة فنية تاريخية في أصول البلاغة العربية، ص95.

[2] ينظر؛ أحمد مطلوب: أساليب بلاغية الفصاحة البلاغة المعاني، وكالة المطبوعات، شارع فهد السالم، الكويت، ط1، 1980، ص56-57.

و"أسرار البلاغة" ووضع فيهما قوانين للبيان والمعاني وما يعنين من كتب الجرجاني نهدف له هنا هو كتاب "أسرار البلاغة" الذي وضع فيه نظرية علم البيان كما ذكرنا سابقا بجميع قواعده، فهو في الحقيقة كان فريدا في بابه[1].

ويعتبر الجرجاني أول من بحث في نظرية البيان، حيث بحث فيها لأول مرة بحثا دقيقا وحررها على عكس البلاغيين الذين سبقوه بالحث فيه وقد حررها في كتابه أسرار البلاغة وبين أقسامها وفروعها وحلل أمثلتها حوالي أربعين، ولكنه لم يفكر حين خص كتابه بمباحث البيان في وضع هذا علما عليها حيث كان يسمها مباحث في المعاني باسم علم البيان مرة وعلى الفصاحة مرة أخرى.

كما نجده يشير إلى أن الاستعارة من البديع، كما أنه يقدم لعلم واحد وهو علم البلاغة وخصائص التعبير الجمالية.

وقد جعل كلمة البيان أسرار كما جعلها عنوانا لهذا الكتاب، وهو دائما في الدلائل يدمج الفصاحة بالبلاغة ويجعلها مدلولا واحدا من كل هذا، ومنه يتبين لنا أنه لم يكن يمثل استقرار علم البيان بالصورة التي اتخذها عند الزمخشري وعند من خلفوه من البلاغيين، فهو افتتح مقدمة كتابه بالبيان مقدمة لذلك بالآية القرآنية ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) ﴾ سورة الرحمن، الآية [1-4].

وبعدها ذهب إلى الحديث عن فضيلة البيان التي ترجع إلى النظم وترتيب الكلام وفق ترتيب معانيه في النفس لا ترجع إلى اللفظ ، ولا يسهل مباحثه في البيان والذي يحاول بيان الفروق الدقيقة في التركيب، إلا أنه لم يتسع بتلك الفروق على نحو ما قد اتسع بها في الدلائل حيث قام بحصرها في الصور البيانية وفي لونين من ألوان البديع لطالما أشار إليها سابقوه إلى أن جمالها حسي لفظي، وقد صنف هذا الكتاب بعد كتاب الدلائل، هذا واضح لمباحثه فيهما وفي الصور البيانية، وهذا الكتاب يوضح لنا أنه يستهل كتاب بالحديث عن السجع والجناس

[1] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان، ص22.

وذلك كي يحاول إثبات لنا أن الجمال فيها لا يعود إلى جرس الحروف والظاهر الوضع اللغوي، بل يعود إلى مسائل معنوية من شأنها أن ترضي العقل وعلى قدر هذا الرضا يكون جمال الجناس[1].

ونلاحظ أثر الجاحظ في كتابه الصناعتين لبي هلال العسكري كتاب "البيان" وكتاب "البديع" فقد كان لهذين الكتابين الأثر البارز فيم كتب أبو هلال في كتابه "الصناعتين" الكتابة والشعر، إذ يصرح أنه قرأ كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ واعترف أنه كتابا متعدد الفوائد وجم المنافع إلا أن الإبانة عن أقسام البيان وحدود البلاغة والفصاحة منتشرة في أثنائه، فلا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح المتكرر الكثير وهذا ما جعل أبو هلال يؤلف كتابه هذا متضمنا كل ما يحتاج إليه لصنعة الكلام نظمه ونثره ويستعمل في معقوده ومحلوله من غير تقصير وإسهاب.

ن- السكاكي (ت 626هـ):

وقد جاء السكاكي 626هـ بعد عبد القاهر الجرجاني وتأثر بالجاحظ في البيان وقد اتضحت مباحث البيان عنده وحصرت فروعها وأصولها، وظهرت أسرارها وقد ابتكر السكاكي ترتيبا جديدا في المباحث وجمع كل ما كان متعلقا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال وسموه علم المعاني، وجمع أيضا ما كان متعلقا بالمعنى الواحد بطرق مختلفة تسمى علم البيان.

ويعتبر السكاكي أول من جعل علم البيان علما مستقلا وقائما بذاته وميز قواعده من قواعد علم المعاني، ومنه يمكننا أن نقول بأن السكاكي لم يبدع في علم البيان إذ كان منظما لمباحث البيان فقط[2].

[1] ينظر؛ شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص190-191.

[2] علي عبد الرزاق: علم البيان وتاريخه، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص27.

وقد قام السكاكي في مطلع القرن السابع الهجري بتقسيم البلاغة العربية إلى ثلاثة أقسام وهي: علم البديع وعلم البيان وعلم المعاني، وهذا التقسيم أخذ به العلماء من بعده وما زال حتى الآن، وقد قيل أن السكاكي قد اتهم بالتعقيد والميل أيضا إلى الإكثار من التعديدات والتفريغات[1].

وقد كان السكاكي عن علم بعلم البيان لأنه سمي بهذا الاسم لأنه متعلق بالوضوح والبيان، وذكر أيضا البلاغيون أنهم كانوا يسمون علم البيان والعلم البديع وعلم المعاني بعلم البيان، كونها متعلقة كلها باليان وكان البعض منهم يسمون البيان والبديع بعلم المعاني[2].

وقد تكلم السكاكي عن علم البيان حيث أنه قام بتعريفه، كما أن في مقدمة حديثه وتلخيصه لقضية علم البيان تطرق للحديث عن الدلالات وقام بتقسيمها، وبعد هذا قام بالتلخيص من هذه المقدمة وأشار غلى أن علم البيان يتناول التشبيه والمجاز والكناية، وأن مباحث التشبيه وحدها فقط عنده تتناول أربعة موضوعات حيث قام بذكرها وفصل في القول منها.

وبعد ذلك ينتقل السكاكي إلى الحديث عن المجاز ويقوم هو أيضا بتعريفه، وينتقل بعد تعريفه إلى أقسامه ويقسمه إلى قسمين وهما: مجاز لغوي في الفرد، ومجاز عقلي في الجملة، ثم يقوم بتفريع هذين القسمين إلى أقسام متعددة، وبعدها ينتقل إلى تقسيم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية.

وأخيرا نلاحظ بأن السكاكي يذهب إلى الحديث عن الكناية ويقوم بتعريفها، وبعدها يقوم بالتفريق بينها وبين المجاز ويقوم هي أيضا بتقسيمها[3].

[1] ينظر؛ بثينة أيوب، أحمد محمود المصري: قضايا بلاغية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2005، ص21.

[2] ينظر؛ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة فنية تاريخية في أصول البلاغة العربية، ص209.

[3] ينظر؛ عبد العزيز عتيق: علم البيان في البلاغة العربية، ص31-37.

ولقد جعل السكاكي علم البيان شعبة من علم المعاني ولا ينفصل عنه إلا بزيادة اعتبار، إلا أنه لم يوضح تلك الزيادة، أي أنه اعترف بأنه لا يمكن الفصل بينهما كونهما مرتبطان أشد ارتباط[1].

وحصر السكاكي البيان في الكتابة والمجاز كون دلالتهما عقلية.

أما التشبيه فدلالته وضعية وهو لا يدخل في علم البيان، ورغم هذا الحصر إلا أن السكاكي لم يتمكن من أن يخرج التشبيه من بحث البيان، وجعله أصلا، كونه كثير المباحث وبذلك حصر السكاكي مباحث البيان في التشبيه والمجاز بأنواعه، وإن كان هذا الحصر منطقيا إلا أنه أدق من منهجه في بحث المعاني وقد قسم التشبيه إلى أربعة مطالب كما ذكرنا سابقا، وبهذا التقسيم جعل بحث التشبيه أقرب إلى روح الفن وأقرب إلى روح البلاغة العربية.

وقسم المجاز كما قسمه البلاغيون وقسم الكناية إلى ثلاثة أقس

أما فيما يتعلق بشأن البديع فإن السكاكي وكما نعلم فهو لم يسميه بهذا الاسم بل سماه وجوها مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصدت حسن الكلام، وقسمه إلى قسمين.

وترك أنواعا كثيرة من المحسنات لأنه رأى أنها لا قيمة لها.

وكان تقسيمه للمحسنات البديعية واللفظية غير دقيق فكانت أكثر هذه المحسنات متداخلة فيما بعضها.

والسكاكي لم يكن مهتما كثرا ببحث الفصاحة كما اهتم غيره بها فهو تحدث عنها في نهاية علم البيان وقسمها إلى قسمين ومن كل ما سبق لنا نستنتج أن منهج السكاكي في البلاغة هو منهج قائم على مستوى التقسيم العقلي[2].

[1] ينظر؛ أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، ص134.

[2] ينظر؛ أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، ص148-153.

الخاتمة

الحمد لله أولا وآخرا الذي أعاننا على إتمام هذا البحث، وفي هذه الخاتمة الموجزة أردنا أن نورد أهم الانجازات والأهداف التي حققها العرب القدامى ومدى إسهامات الجاحظ باعتباره أول من أرسى معالم البيان من خلال ما قدمه من مؤلفات وكتب ورسائل في دراسة الكثير من القضايا البيانية، ومن أهم ما خلصنا إليه في هذا البحث ما يلي:

– يعتبر الجاحظ من أبرز و أهم علماء العرب القدامى الذي كان له إسهامات وفضل كبير في إرساء البيان، كما يعتبر هو أول من وضع علم البيان وأبان عنه.

– لقد تناول الجاحظ من خلال مؤلفاته وخاصة البيان والتبيين والحيوان مباحث لها ارتباط وثيق بموضوع البيان .

– الجاحظ إمام فذّ من أئمة البيان في العربية ولا نبالغ إن قلنا بأنه زعيم البيان العربي في العصر العباسي الثاني.

– لقد وفق الجاحظ في تحديده لمفهوم البيان العربي في إطار استقرائه لآراء الأمم الأخرى، حيث كان دقيقا في فهم البيان وقد كان كتاب "البيان والتبيين" مصدرا مهما عند الدارسين منذ القديم.

– كان الجاحظ معاصرا لأعلام كبار وشيوخ ومن بينهم معمر بن المثنى، وبشر بن المعتمر وغيرهم من الأعلام فأخذ عنهم العلم و المعرفة بشتى فروعها وبنى بها نظرية البيان، وقام بعدة إضافات جديدة للبيان حيث جعله أكثر تطورا .

– لقد امتدت نظرية البيان عند الجاحظ لكل من الرماني والباقلاني والخطابي والسكاكي وغيرهم من البلاغيين، وقد جاء علم البيان متأثرا بمختلف العلوم القرآنية و العلوم الأدبية واللغوية، حيث كانت مسألة البيان قضية مثيرة للكثيرة من علماء اللغة و الأدب فأثاروا في دراستهم ومؤلفاتهم التي تتعلق بالبيان.

– الجاحظ يعد رائدا عظيما من رواد البلاغة العربية لما قدمه من أصول تتصل بالبلاغة، وقد تعرفنا في بحثنا هذا على أبرز الجهود عند الكثير من الأعلام الذين تأثروا بالجاحظ أمثال ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني والباقلاني وغيرهم.

– إذا بحثنا في تاريخ الأدب العربي عن معلم بارز وشخصية تحتل المكانة الأبرز لن تجد إلا الجاحظ، فهو من أبرز الشخصيات في التراث العربي التي حضيت بكم كبير من الاهتمام والدراسة، وهو أمير البيان وحد أساطير الكبار ويعتبر أكثر من أهل عصره علما وأعظمهم أثرا.

وأسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل نافعا ومسددا وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا:أعمال الجاحظ.

1. الجاحظ (أبو عثمان بن بحر) : البيان والتبيين موقف شهاب الدين، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ط2، ج1، 2009م.

2. الجاحظ (ابي عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبيين،تح: درويش جويدي،المكتبة المصرية،بيروت لبنان، ط2، 2002م.

3. الجاحظ: البيان والتبين، شح درويش جويدي المكتبة العصرية بيروت،د،ط، 2003م.

4. الجاحظ: الحيوان،تح :عبد السلام هارون،دار الجبل لبنان، بيروت،د،ط،1996.

5. الجاحظ: حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، ط5، ج3، د.ت.

ثانيا: القواميس والمعاجم:

6. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط8،ج1، 2014م.

7. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط1، ج:17، 1999م.

8. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، ج:16، 2002م .

51.الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح:خليل مأمون شيحا، ط4،ج:1 ، 2009م.

ثالثا: المراجع بالعربية.

9. ابن خلكان وفيات الأعيان بن محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة، النهضة المصرية ،د ط، 1941م.

10.أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني : الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا وعلى حسن فاعود، بيروت، لبنان، ط3، ج1، 1993م.

11.أحمد أبو زيد: المنحى الإعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، 1986م.

12.أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة الإدارة العليا للحوزات العلمية، ط3، 1943م.

13.أحمد أمين: صبحي إسلام، مؤسسة للتعليم والثقافة، ط،ج1، 2012م.

14.أحمد أمين: ضحى إسلام، مكتبة الأسرة مهرجان القراءة للجميع، ط، ج1، 1997م.

15.أحمد أمين: ضحى الاسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة،د،ط،ج:1.

16.أحمد مطلوب: أساليب بلاغية ، الفصاحة، البلاغة،المعاني، وكالة المطبوعات، شارع فهد السالم، الكويت ط 16، 1980.

17.أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، دار التضامن منشورات مكتبة النهضة بغداد ط1، 1964م.

18.بثينة أيوب، أحمد محمود المصري: قضايا بلاغية، دار الوفاء لدنبا الطباعة والنشر الاسكندرية، ط1، 2005م.

19.بدوي طبانة : البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ملتزم الطبع و النشر مكتبة الاجلو مصرية ط2، 1958م.

20.جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، دار صادر، بيروت، د، ط، دت.

21.حسين الحاج حسن: أعلام في النشر العباسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1993م.

22.حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب اسمه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ذ، ط، 1981.

23.حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأهلية الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986.

24.حنا الفاخوري: تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب، الشركة المصرية العالمية للنشر مكتبة لبنان، ط1، 2002م.

25.الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث رب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف، ط3، ج1، 1993م.

26.رحمن عزكان: مناهج النقد البلاغي في قراءة وتطبيقات، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2016، ص25.

27.الرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف بمصر،ط3، 1976م.

28.الشوقي ضيف: البلاغة وتطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، 1911م.

29.شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط16ج3، دت.

30.ضحى الاسلام: احمد أمين، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ط،7،ج:3 2001ص138-139.

31.طه الحاجري: الجاحط حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1969م.

32.عاطف فضل: مبادى البلاغة العربية، دار الواري للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م.

33.عبد العزيز عتيق: علم البيان في البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ذ، ط، ج:2، 1985م.

34.عبد اللطيف صوفي: مصادر الأدب في المكتبة العربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، د، ط، د.ت.

35.عبدا لسلام المسدي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، القاهرة، ط4، 1993 م.

36.عبدالكريم الخطيب: اعجاز القرآن الاعجاز في دراسات السابقين دراسةكاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، ط1، 1974م.

37.عزت السيد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، المكتبة الإلكترونية، دمشق، ط1، 2005م.

38.علي بوملحم: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993م.

39.علي عبدا لرزاق: علم البين وتاريخه، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط1، 2004م.

40.عماد الراعوش: رسالة النكت في إعجاز القرآن دراسة ونقد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، دط دت.

41.عمر عبدا لهادي عتيق: علم البلاغة بين الاصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2012م.

42.فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الاجلو المصرية القاهرة،دط،2005م.

43. محمد أبو شوارب، أحمد محمود المعرفي: المدخل دراسة البلاغة العربية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2007م.

44. محمد الصغير بناني:، النظريات اللسانية والبلاغة الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، جوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994م.

45. محمد بركات حمدي أبو علي: دراسات في الأدب، دار وائل للنشر، ط2، ج2، 1999م.

46. محمد حسين علي الصغير: أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط1، 1999م.

47. مختار عطية: علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع، دراسة بلاغية، دار الوفاء لدينار الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2004م.

48. يوسف عطا الطريفي: شعراء العصر العباسي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2009م.

رابعا: المراجع المترجمة

49. شارل بلا، الجاحظ في البصرة ومن مراد، إبراهيم الكيلاني، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط1، 1985.

فهرس المحتويات

فــهرس المحتــويـات:

المحتويات	الصفحة
مقدمة:	أ- ب
مدخل: معالم عصر الجاحظ حياته وعلمه	
الحياة السياسية.	6-4
الحياة الثقافية	8-6
الحياة الاجتماعية	11-8
حياته	11
اسمه ومولده	12-11
نشأته	14-13
منهجه العلمي	15-14
اسلوبه	15
مرضه ووفاته	16-15
نسبه	17-16
آثاره	21-17
فلسفته	22
اعتزاله	26-22
الفصـــــل الأول: أصول البيان	
1-تعريف البيان:	**28**
ا-لغة	**29-28**
ب-اصطلاحا	30-29
2-نشأة البيان وتطوره قبل الجاحظ	34-30

ابن عبيدة	35-34
بشر بن المعتمر	36
3-البيان عند الجاحظ	38-37
ا-انواع الدلالات على المعاني	43-38
اللفظ	44-43
الاشارة	44
العقد	46-45
الخط	45
النصبة	48-46
ب-من العلامة مطلقا إلى العلامة اللغوية	50-48
4-البلاغة عند الجاحظ	53-51
عند الأمم	51
عند الرومي	52
العتابي	53-52
ابن المقفع	54-53
جعفر بن يحي	55-54
ثمامة بن الأشرس.	55
السجع	56-55
التشبيه	60-56
الفصـــل الثاني: امتدادات مفهوم البيان بعد الجاحظ	
عبد الله بن المعتز	63-62
قدامة بن جعفر	63

الرماني	65-64
الخطابي	66-65
الباقلاني	70-69
ابن سنان الخفاجي	71-70
عبدالقاهر الجرجاني	73-71
السكاكي	75-73
الخاتمـــــــة:	78-76
قائمة المصادر المراجع	84-79
فهرس المحتويات	88-85